عبد القادر المبارك

العلامة اللغوي

عضو مجمع اللغة العربية

(١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م ـ ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م)

«جهوده في نشر العربية، وتفانيه في تعليمها»

إبراهيم الزيبق



عبد القادر المبارك

عضو مجمع اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحیم

الإهداء

إلى د. مازن

عَلَمٌ من آل المبارك ما زال يفوح بالعطاء...

إبراهيم

سأُنضي رِكابَ الجِدِّ في طَلَبِ اللُّغى

وأَدْأَبُ في جَوْبِ المَوَامي أَوَ ابلغا

عبد القادر المبارك

تصدير

رافق إنشاء المجمع قيام الدولة العربية الفتية في دمشق. وإن نجاحه السريع الباهر في إزالة آثار التتريك من مظاهر الحياة الاجتماعية كلها، والتعليم منها بخاصة، جعل سيرورة نشأته والنجاح الذي أصابه قبلة أنظار أشقائنا في الوطن العربي كله، وأضحت التجربة السورية في تعريب التعليم موضوع بحث في الندوات والمؤتمرات. إن دراسة تجربة المؤسسين في إنشاء المجمع وتحليلها، لاستشفاف بعض أسباب النجاح التي لا تزال عنّا خافية، وإقراراً منا بفضلهم فيما أحرزه المجمع من نجاح، وتذكيراً به، دعت جميعها مجلس المجمع في ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٧ لاتخاذ قرارٍ بجمع أعمال مؤسسيه ونشرها، وأوكل في ٣/ ٦/ ٢٠٠٧ إلى لجنةٍ من أعضائه، الدكتور عبد الله واثق شهيد والدكتور زهير البابا والدكتور مازن المبارك مهمة تنفيذ قراره.

عقدت اللجنة جلستها الأولى في ٣١/ ٥/ ٢٠٠٧ قبيل نشر القرار، وتبين لها في تلك الجلسة أن كثيراً من أعمال المؤسسين مبعثرة يصعب الاهتداء إليها، فاستعانت ببعض العاملين في المجمع للبحث عنها، في مجلة المجمع ومطبوعاته، وفي المجلات الأخرى ودور النشر والشابكة (الانترنت). وانتهت اللجنة إلى الرأي بجمع أعمال كل مؤسسٍ منهم على حدة، ونشرها في مجلدٍ واحد، فإذا ضاق المجلد عن استيعاب أعماله كلها ففي أكثر من مجلد. أما

أعمال الأعضاء المقلّين منهم، فتجمع أعمال اثنين أو أكثر في مجلد واحد، ولكلٍ منهم فيه جزء خاص به. والمقلّون من المؤسسين، هم الذين لم نعثر بالرجوع إلى جميع الوسائل المتاحة، إلّا على القليل من أعمالهم. وقد يكون نزوع بعضهم إلى التنقل بين البلاد العربية والإسلامية أو المهاجر، سبباً جعل أعمالهم خافيةً عنّا، إذ تكون قد نشرت على نطاقٍ ضيّقٍ أو بوسائل محدودةٍ في بلدٍ أو أكثر من تلك البلاد.

وجدت اللجنة بعض الاضطراب في تاريخ عضوية بعض الأعضاء في عقد العشرينيات وقبيله من القرن الماضي، اضطراباً لا يصيب أكثر من ترتيب تعيينهم في ذلك العقد، فرأت اللجنة تسميتهم جميعاً الأعضاء المؤسسين، وهم أعضاء المجمع منذ تأسيسه حتى نهاية عام ١٩٣٠، وكان آخر من عين منهم شفيق جبري والأمير مصطفى الشهابي في عام ١٩٢٦، ولم يعيّن عضو في المجمع في عقد العشرينيات بعد ذلك التاريخ. هكذا يمكن متابعة جمع أعمال أعضاء المجمع المعيّنين في كل عقدٍ من عقود القرن الماضي، فيلي المؤسسين المعيّنون في عقد الثلاثينيات فالأربعينيات . . . . . .

بلغ عدد المؤسسين أربعةً وعشرين عضواً، إلا أن عدد الذين وجدوا منهم في دمشق، في أي وقت من العشرينيات، لم يتجاوز سبعة عشر عضواً (وفق التقارير السنوية التي رفعها رئيس المجمع إلى رئيس الدولة حتى عام ١٩٢٧)، وبعضهم ليس له ذكر في التقارير الستة السنوية الأولى كلها، كالشيخ أمين سويد، ويعني ذلك أن الشيخ قد غادر الوطن قبل تاريخ رفع التقرير السنوي الأول عام ١٩٢٢. ونعلم أن بعضاً منهم غادر دمشق في سنوات الثورات السورية المتتالية كقندلفت والمعلوف وعلم الدين . . . منهم من عاد كعلم الدين ومنهم من استقر في المهجر كالمعلوف، وأن بعضاً آخر توفاه الله كالشيخ طاهر الجزائري وإلياس قدسي. . . ويبقى وضع اثنين من الأعضاء ملتبساً، هما الشيخ عبد الرحمن

سلام، إذ ورد ذكره في التقرير السنوي الأول (عام ١٩٢٢) بين الأعضاء المقيمين في دمشق، والشيخ سليم البخاري رئيس علماء دولة دمشق، فهل كان الشيخ ممثلاً لعلماء دولة دمشق أم كان عضواً في المجمع؟ وكلاهما لم يرد اسمه في الجدول الذي تضمن أسماء أعضاء المجمع.

إلى جانب البحث عن أعمال المؤسسين رأت اللجنة ضرورة التعريف بكل من لم يكتب عنه منهم، ووضعت دليلاً للتعريف وقدرت حجمه في زهاء مئة صفحة، وإذا صعب وضع كتاب تعريفٍ بأحدهم من هذا الحجم أمكن ضمّ التعريف بأكثر من مؤسسٍ في كتابٍ، وتخصيص كل واحد منهم بجزء مستقل منه. واقترحت اللجنة على رئيس المجمع عدداً من الباحثين للتعريف بمؤسسين، فوافق على ما اقترحته من أسماء. وكان منهم الأستاذ شحادة الخوري للتعريف بكلٍ من متري قندلفت وإلياس قدسي، والأستاذ إبراهيم الزيبق للتعريف بالشيخ عبد القادر المبارك، والمهندس زهير رشيد للتعريف بالأستاذ رشيد بقدونس، وقد أنجزوا أعمالهم التي كان في باكورتها التعريف بالشيخ عبد القادر المبارك. ولم يكن أصلح لتقييم هذا العمل من ابن الشيخ الدكتور مازن المبارك فهو أقمن منا جميعاً بتقدير مدى نجاح الأستاذ الزيبق في التعريف بالشيخ، وأعرف بدقائق تاريخ حياته. وقد جاء في كلمةٍ منه وجهها إليَّ ما يلي: «وقد وجدت المؤلف يعرض مادة الكتاب في طريقة مزاوجةٍ ممتعةٍ ومفيدةٍ تتناول أحداث العصر من خلال حياة المترجَم، وحياة المترجَم من خلال أحداث العصر، إنه يؤرخ للعصر الذي عاش فيه المبارك ويوثق أحداثه من خلال ترجمة المبارك وآثاره، بأسلوب سهلٍ وتتابعٍ تاريخيٍ موثق». وكنت تصفحت الكتاب وقرأت فقراتٍ منه شوقتني لإتمام قراءته، فزادني تقريظ الزميل الدكتور مازن المبارك شوقاً لقرءاته كله قبل طباعته، فقرأته. وإن الصورة التي انطبعت في ذهني وفي نفسي عن الشيخ عبد القادر المبارك بعد قراءة ما كتبه الأستاذ إبراهيم الزيبق عن حياته، لم يكن

بالإمكان استخلاصها من أعماله اللغوية، وهي أيضاً أساسية في دراسة الشيخ وفهم أعماله وتأثير دوافعه فيها. لقد كان قرار اللجنة التعريف بمن لم يعرّف به من الأعضاء المؤسسين صائباً وضرورياً.

وستعمل اللجنة على تكليف باحثين لاستكمال التعريف بالمؤسسين الذين لم يكتب عنهم كسليم الجندي وعبد الله رعد . . . كما ستقدم اللجنة العون للزملاء الذين استجابوا لندائها مشكورين، ووعدوا بالتعريف بكلٍ من الدكتور مرشد خاطر والشيخ مسعود الكواكبي وسليم عنحوري.

إن تنفيذ قرار المجلس الحصيف قد لقي ويلاقي تعاوناً صادقاً مثمراً من الأعضاء والعاملين في المجمع ومن أصدقائه، تعاوناً يصعب على اللجنة دونه تنفيذ قرار المجمع جمع أعمال مؤسسيه ونشرها، فقد بلغ ما أمكن جمعه من تلك الأعمال ٥٦١٠٨ صفحةً، ولا محالة من ارتفاع حجمها في أثناء نشرها بما يستجد العثور عليه منها. وقد قدرت اللجنة أن نشر أعمال المؤسسين سيستغرق ثلاث سنوات على الأقل واللجنة تتوجه بالشكر للجميع على ما قدموه من عونٍ، عملاً كان أو رأياً.

رئيس اللجنة

عبد الله واثق شهيد

مع مطالعِ القرن العشرين عرفت بلادنا جيلاً من العلماء قد تمكَّنَ من العربية وعلومها تمكُّناً يذكِّرُك بأسلافنا من العلماء، ثم أُوتي من الغَيْرة عليها ما جعله يسهر ليله ويدأبُ نهاره في سبيل الحِفاظ عليها، وإحيائها، وغَرْسها في قلوب أبنائها.

ومن ثَمَّ اتجه هؤلاء العلماء فيما اتجهوا إليه نحو أدبنا القديم، جاهليِّه وإسلاميِّه، يكتشفون أسراره، ويَجْلُون بلاغته، ليحافظوا على نقاوة اللغة وسلامتها، وليخلِّصوها مما عَلِقَ بها عبر الزمن من أدران العُجْمة والرَّكاكة.

فقد آمنوا، والأمة تتعرَّضُ لما تعرَّضت له من طامع بأرضها، وكائدٍ لثقافتها، بأنَّ حصْنَها الحصين هو لغتُها، فبه تحافظ على قِيَمها وفِكْرها، فكانوا ذادةً في زمن عزَّ فيه الأنصار، ودعاةً إلى الإرث الموروث في زمن زاغتْ فيه الأبصار.

وما يميِّزُهم حقاً عمن أتى بعدهم أنَّ انصرافهم للعلم كان انصرافاً عظيماً، وكانت طريقتُهم فيه الإحاطةَ بفروعِ الثقافة كلِّها، بروحٍ علمية محبَّةٍ للتحقيق، وبذاكرة واعيةٍ كثيرةِ الاستيعاب، ثم إنَّ انصرافهم للعلم كان للعلم وحسب، لا للشَّهادة والكَسْب.

ومع العلم علَّموا الدِّين والأخلاق، وأفادوا بثمراتِ تجربتهم في الحياة كما أفادوا بدروسهم، وكانوا ـ كما وُصِفُوا بحقٍّ ـ آباءً قبل أن يكونوا معلمين،

وما أَشْبههم بالمخطوطة النفيسة قد يكون فيها خَرْمٌ أو غموض، ولكنها أثمنُ من كلِّ مطبوع، لأنَّها مفردةٌ ليس لها نظير[١].

۞ ۞ ۞

ومِنْ فَضْل الله عليَّ أنْ أُتيح لي أن أدرس سيرة واحدٍ من هؤلاء العلماء، هو الشيخ عبد القادر المبارك، فجمعتُ ما تناثر من أخباره، وما عُرِفَ من آثاره، فإذا بها تستوي أمام ناظري حياةً تمورُ بالجِدِّ والإخلاص، وتشعر حِيالها بعظمةِ صاحبها، وبالجهد الكبير الذي بذله في سبيل لغة أمته وثقافتها. وينتابك الأسى وأنت تدرك أنَّ حياةً كهذه الحياة بقيت مغمورةً في زوايا النسيان، فحتى الآن لم يؤلَّف كتابٌ في سيرته على قِدَمِ وفاته، ويبدو أننا نحن الشَّاميين قليلو الاحتفاء بالكتابة عن علمائنا، متقدِّمهم ومُحْدثهم.

وقد اجتهدتُ في دراستي عنه قدر ما أستطيع في إبراز الجانب اللُّغوي في حياته، فقد قضى جُلَّها في خدمة العربية تحت قُبَّة المجمع العلمي العربي، وهو من أعضائه المؤسِّسين، يصوغُ مصطلحاتها، ويزيل الغُرْبة عن غريبها، وفي قاعات مكتب عنبر يلقيها على طلابه، لغةً سائغةً جميلة، تزيدهم حباً لها، وشغفاً بها.

فلا عجبَ إنْ رأينا مِنْ طلابه الكاتبَ البليغ كالأُستاذ علي الطنطاوي، والنحويَّ المجتهد كالأستاذ سعيد الأفغاني، والشاعر المُلْهَم كالأُستاذ أنور العطار وزكي المحاسني.

وقد اختلفتِ الرواياتُ في بعض حوادث هذه السيرة، ومنها ما أملته الذاكرةُ بعيداً عن التثبت العلمي، فأثبتُّ ما رأيته متساوقاً مع الأحداث، وما هداني المنهج التاريخي إلى أنه الأقرب للصَّواب.

---

(١) شبههم بذلك أديب العربية الأستاذ علي الطنطاوي في كتابه «من حديث النفس»: ص١٣٨.

ولأنَّ الشيخ عبد القادر سليلُ أسرةٍ عِلْمية، توارثتِ العِلْم كابراً عن كابر، فقد قدَّمْتُ لسيرته بنبذة عن أُسرته، وتوسَّعت قليلاً في ترجمة والده الشيخ محمد المبارك، لمنزلته في عَصْره، ولأثره في تنشئة ابنه.

ولقِلَّة ما تركه الشيخ عبد القادر من آثارٍ، فقد رأيت أن ألحق بآخر هذا الكتاب قصائده الطوال التي وقفتُ عليها، حِفْظاً لها من الضَّياع، وإعانةً لدارس تلك الفترة بالوقوف على آثارها، فقصائد الشيخ عبد القادر، وإن لم تستوفِ القيمةَ الفنية العالية، فهي تقدِّمُ قيمة تاريخية تبصّرُنا بمشاعر ذلك العصر وأفكاره، وأردفتهم بمقاله «لغة المتنبي» نموذجاً من نثره.

ثم ألحقتُ بهم قصيدة تلميذه الشَّاعر زكي المحاسني التي قالها في رثائه.

وختاماً، أزجي شكري الجزيل لمجمع اللغة العربية بدمشق، ممثلاً برئيسه الدكتور مروان المحاسني وأعضائه المبجلين، على مبادرته الكريمة بإحياء سيرة مؤسسيه الأوائل، ونشر آثارهم.

كما أشكره على ثقته بي، إذ منحني شرفَ كتابةِ سيرة واحدٍ منهم.

وللدكتور مازن المبارك كلُّ عرفان بالجميل لما بذله لي من وقته الثمين، وما أطلعني عليه من أوراقه الخاصة، وقد مكَّنني بذلك من لملمة سيرة والده العظيم.

وما أرجوه أن ترى هذه الأجيال في سيرة الشيخ عبد القادر المبارك خبرةً فقدتها، وعلماً كاد يضيع منها، ونهجاً في الحياة بات غريباً عنها، فتتواصل الأمة في أجيالها، فيكمل لاحقٌ ما بدأه سابق، ويوصل حاضرٌ ما قطعه غائب، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.

إبراهيم الزيبق

دمشق في

السبت ١٠ شعبان ١٤٣٠هـ

١ آب ٢٠٠٩م

حياته

آل المبارك

أسرة المبارك أسرة عربية، يرتفع نسبها إلى إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم[١].

وكان إدريس قد فرَّ إلى المغرب الأقصى عقب موقعة فخ قرب مكة المكرمة سنة (١٦٩هـ/ ٧٨٥م) التي قتل فيها الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين ثار على الهادي العبَّاسي[٢].

فجد الأسرة هو محمد المبارك الدِّلِّسي بن محمد بلخطيب بن عبد الله بن أحمد بن محمد الحاج بن علي[٣].

وأقدم من عرف من الأسرة محمد الحاج، وكان يقيم في الجزائر في قرية حملت اسمه فيما بعد[٤]، وهي تبعد نحو ثلاث كيلو مترات عن بني دُوالة شرقاً.

وقد انتقل أحد أولاده منها، وسكن في دِلِّس على ساحل البحر، وكان إماماً

---

(١) وثيقة النسب والإجازات، ومن هذه الوثيقة نسخة أصيلة في مركز جمعة الماجد بدبي.

(٢) الكامل لابن الأثير: ٦/ ٩٠ـ٩٤، العبر لابن خلدون: ٣/ ٢١٥ـ٢١٦.

(٣) ويرتفع نسب علي إلى إدريس الأكبر، وانظر نسبه الشريف في وثيقة النسب والإجازات.

(٤) مقابلة مع د. مازن المبارك.

وخطيباً في مسجدها، وخلفه أولاده في الإمامة والخطابة، فاشتهرت الأسرة بالخطيب، وما زال هذا لقبها في الجزائر حتى اليوم[١].

ونبغ فيهم محمد بلخطيب، وكان على صلة بالشيخ علي بن عيسى، شيخ الطريقة الخَلْوتية، ومن كبار علماء منطقة القبائل، وقد عرض عليه الشيخ علي ذات يوم حاجة القبائل لتعلم العربية، ونشر العلوم الشرعية فيها، فقام محمد بلخطيب بجولة علمية في منطقة القبائل، ثم اختار قرية بني دُوالة ـ وهي على إحدى قمم جبال جَرْجَرة القريبة من مدينة تيزي أوزو ـ مكاناً للإقامة، وليكون على مقربة من ضريح جده الأعلى محمد الحاج، فاشترى أرضاً بنى عليها بيتاً ومسجداً[٢]، ثم أحضر عائلته من دِلِّس، وقد عرف فيما بعد بلقب الدِّلِّسي، كان ذلك في أواخر القرن الثاني عشر الهجري[٣].

وفي عام (١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م) ولد ابنه محمد المبارك الدِّلِّسي[٤]، حتى إذا بلغ سن التمييز اشتغل بحفظ القرآن الكريم، ثم بتحصيل العلوم الشرعية، وكان قد حُبِّب إليه الخلوة والعبادة، فكان يتزود ليخلو في الغابة عاكفاً على العبادة والتأمّل[٥].

ثم إن أباه محمد بلخطيب أرسله إلى شيخه علي بن عيسى[٦]، فلازمه، وأخذ عليه الطريقة الخلوتية، فلما دنت وفاة الشيخ علي أوصى به خليفتَه الشيخَ محمد المهدي السكلاوي، فأكمل تعليمه وإرشاده[٧]، حتى إذا تمكن، ووثق

(١) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٢) ما زال المسجد قائماً حتى اليوم.

(٣) ترجمة الشيخ محمد الطيب لحفيده هشام الطيب.

(٤) حلية البشر: ٣/ ١٣٧٢.

(٥) المصدر السالف.

(٦) المصدر السالف.

(٧) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

شيخه بعلمه وجَّهه إلى منطقة القبائل ليقوم بتعليم العربية ونشر العلوم الشرعية، وكثيراً ما كان يقيم في تيزي أوزو وما حولها من قرى أشهراً طويلة، حتى إن بعض الكبراء من البربر زوجه ابنته، فرزق منها بمولود سمّاه محمد المنوَّر[١].

ويبدو أنه بعد وفاة والده محمد بلخطيب عاد إلى دِلِّس، وأقام فيها[٢]، وكانت زوجته أم ولده المنوّر قد توفيت، فزوجه شيخه محمد المهدي السكلاوي إحدى كريماته، فولدت له ابنه محمد الطيب[٣] سنة (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م)[٤]، وكان صيته قد ذاع في الأقطار لورعه وعلمه وسخائه، وتخرج به عدد كبير من طلبة العلم[٥].

❁ ❁ ❁

في تلك الأثناء كانت فرنسة قد احتلت الجزائر بعد أن لمست ضعفها، متخذةً من حادثة ضرب باي الجزائر قنصلَها بمذبَّةٍ ذريعةً لتنفيذ ما عزمت عليه[٦].

ففي (١٤) حزيران (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م) نزل جيش فرنسي قوامه سبعة وثلاثون ألف مقاتل على شاطئ خليج سيدي فرج غربي الجزائر العاصمة، بقيادة الجنرال دي بورمون[٧]، وفي (٥) تموز دخلوا مدينة الجزائر ليبدأ فصل طويل من فصول

(١) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.
(٢) المصدر السالف. وما زال بيته في دلس معروفاً عند أهلها إلى اليوم.
(٣) المصدر السالف.
(٤) أعيان دمشق للشطي: ٣٥٦.
(٥) حلية البشر: ٣/ ١٣٧٢.
(٦) تاريخ الأقطار العربية: ص٢٠٤.
(٧) المصدر السالف: ص٢٠٤ـ٢٠٥.

التوسع الاستعماري الغربي في الوطن العربي، وقد أعلنت فرنسة سنة (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) ضم الجزائر رسمياً إليها[١].

وتنادى الجزائريون لمقاومة فرنسة، واختاروا الأمير عبد القادر سنة (١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م) قائداً لهم[٢]. ومنذ ذلك التاريخ اشتعلت ثورة كبيرة في الجزائر، ساهم فيها الشيخ محمد المبارك بالنفس والمال[٣]، وقد قمعتها فرنسة بكل قسوة ووحشية حتى استطاعت أخيراً القضاء عليها، واستسلم الأمير عبد القادر في (٢٤ذي القعدة سنة ١٢٦٣هـ/ ٥تشرين الثاني ١٨٤٧م) للقوات الفرنسية[٤]، حيث أرسل إلى فرنسة[٥]، وما إن وصل خبر هذا الاستسلام للشيخين محمد المهدي السكلاوي ومحمد المبارك حتى قررا الهجرة من الجزائر[٦] حفظاً لدينهما ودين أبنائهما، فكانت هجرتهما إلى الشام[٧].



(١) تاريخ الأقطار العربية: ص٢٠٥.
(٢) المصدر السالف: ص٢٠٦.
(٣) حلية البشر: ٣/ ١٣٧٢.
(٤) ترجمة الشيخ محمد الطيب.
(٥) تاريخ الأقطار العربية: ٢١٣ـ٢١٤، أعيان دمشق للشطي: ١٧٩ـ١٨٣.
(٦) ترجمة الشيخ محمد الطيب.
(٧) مقابلة مع د. مازن المبارك.

الهجرة إلى الشَّام

ولم يكن قرار الهجرة سهلاً، فما إن شرع الشيخان المهدي والمبارك يدعوان لها حتى جُوبها بمعارضة أهالي دلس لها ومِنْ أقربائهما[١]، وحاولوا ثني الشيخين عنها[٢]، ولم يستجب لهما إلا نحو أربعين أسرة[٣]، كانت منهم أسرة الشيخ محمد صالح والد طاهر الجزائري[٤].

وفي أواخر سنة (١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م)[٥] أتم المهاجرون استعداداتهم، واتخذوا طريقهم نحو البحر ليستقلوا المراكب نحو الشام، وخرج أهالي دِلِّس يودعونهم بالعويل والدموع[٦]، ومع الشيخ محمد المبارك ولداه محمد المنور ومحمد الطيب وابنته مريم، وقد أشهرت زوجته بمولود جديد[٧].

وأبحرت المراكب بمحاذاة الشاطئ، وفي عنَّابة انضمت إليهم مراكب

(١) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٢) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

(٣) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

(٤) كنوز الأجداد: ص٩.

(٥) حلية البشر: ٢/ ٧٥٨، وأعيان دمشق: ٢٦٣، وكنوز الأجداد: ص٩.

(٦) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

(٧) ترجمة الشيخ عبد القادر المبارك لهاني المبارك.

مهاجرة، ومروا في طريقهم بموانئ تونس وليبيا حتى ألقوا مراسيهم في دمياط، ثم تابعوا طريقهم نحو شاطئ فلسطين، وهناك انتابت زوجةَ الشيخ محمد المبارك آلامُ المخاض[١]، غير أنها سكنتْ، حتى إذا وصلوا إلى بيروت وضعت مولوداً ذكراً، فسمّاه أبوه محمد المبارك على اسمه[٢]، وقد عرف فيما بعد باسم محمد الشيخ تمييزاً له عن اسم أبيه[٣].

وأقام المهاجرون في بيروت أياماً قليلة ريثما استأجروا بغالاً وحميراً أقلَّتهم نحو دمشق[٤].

وفي طريقهم إليها كان المهاجرون كثيراً ما يسألون الشيخ محمد المبارك، وقد استبدَّ بهم القلق: أين سننزل في الشام ونحن غرباء لا نعرف أحداً؟ فكان الشيخ يجيبهم باطمئنان المؤمن: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٥] نحن فررنا بديننا، وصاحب الدين لن يتخلى عنا[٦].

وتسامع أهل دمشق بخبر هذه القافلة المهاجرة إليهم، وكانت شهرة الشيخ محمد المبارك قد سبقته إليها، فخرجت دمشق بأشرافها وعلمائها وتجارها وعوامها لاستقباله والترحيب به[٧].

وحطت القافلة رحالها بحي باب الجابية[٨]، وبالقرب منه يقع حي السويقة،

(١) ترجمة الشيخ محمد الطيب.
(٢) تعطير المشام: ٣/ ٢٧، المعاصرون: ٣٦٧.
(٣) مقابلة مع د. مازن المبارك.
(٤) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٩٦.
(٦) مقابلة مع د. مازن المبارك.
(٧) حلية البشر: ٣/ ١٣٧٣.
(٨) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

وفيه خان يسمى خان المغاربة، كان ينزل فيه قديماً المغاربة القادمون إلى دمشق(١)، فنزل فيه أكثرهم، وبعضهم ـ ممن كان له خبرة بالزراعة ـ تابع طريقه نحو غباغب وعالقين(٢)، أما الشيخان المهدي والمبارك فقد نزلا بالمدرسة الخيضرية(٣).

وبعد زمن قصير اشترى الشيخ محمد المبارك بيتاً في زقاق البركة، واشترى الشيخ المهدي بيتاً قرب المدرسة الخيضرية، ثم تولى التدريس بها(٤)، وصار الشيخان المهدي والمبارك يقيمان فيها الأذكار ويقرآن الأوراد(٥).

وذاع فضل الشيخ محمد المبارك لعلمه وورعه ونسبه الشريف، فاجتمعت عليه القلوب، وصار مقصوداً لدفع الهموم والكروب(٦).



بعد عامين من إقامته بدمشق توجه الشيخ محمد المبارك مع نفر من أصحابه ومريديه وأحبابه إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، وزيارة المصطفى ﷺ.

وعقب رجوعه من الحج اتخذ لنفسه خلوة في داره(٧)، يعتكف فيها خمسة أيام من كل أسبوع(٨)، حتى إذا كان يوم الخميس فتح بابه لزيارة القاصدين، ومذاكرة الواردين، وكثيراً ما كان يقرأ لهم كتب الرقائق، ويستخرج من كنوزها

(١) حي الميدان في العصر العثماني: ص٣٩١، وحديث دمشقي: ص٥٤.
(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.
(٣) مقابلة مع د. مازن المبارك.
والمدرسة الخيضرية تقع قرب باب الجابية، في زقاق يعرف بها، وتسمِّيه العامة: الخضيرية.
(٤) ترجمة الشيخ محمد الطيب، وأعيان دمشق: ص٢٦٣.
(٥) مقابلة مع د. مازن المبارك.
(٦) حلية البشر: ٣/ ١٣٧٣.
(٧) المصدر السالف.
(٨) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

لآلئ الدقائق، ليزيدهم من فعل المأمور ترغيباً، ومن المآثم ترهيباً، ثم يعود لخلوته يوم السبت(١).

وكان لدرسه هذا أثر في نشر الطريقة الشاذلية في دمشق، وكان مولعاً بشرب الشاي الأخضر على عادة المغاربة في شربه، فأشاعه بين متصوفتها(٢).

وكان يعظم زوجته ابنة شيخه المهدي، حرمة لأستاذه، ولما كان يرى فيها من الخير والصلاح(٣).

ظلَّ هذا دأبَه بين خلوة يعتكف فيها، وجلوة يُقرئ فيها، حتى وافته منيته سنة (١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م)(٤) وهو في نحو الخامسة والأربعين من عمره، فحُمل من داره بزقاق البركة إلى الجامع الأموي، حيث صُلِّي عليه، ثم حُمل إلى سفح قاسيون(٥)، حيث دفن في مقبرة نبي الله ذي الكفل بالمهاجرين(٦)، إنفاذاً لوصيته(٧).

وقد ترك ابنه محمداً في كفالة أمه، وهو في نحو الخامسة من عمره(٨).

---

(١) حلية البشر: ٣/ ١٣٧٣.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) حلية البشر: ٣/ ١٣٧٣.

(٤) حلية البشر: ٣/ ١٣٧٥.

(٥) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

(٦) مقابلة مع د. مازن المبارك، وما زال قبره معروفاً إلى الآن.

(٧) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

(٨) أما أخوه محمد الطيب فقد كان في نحو الرابعة عشرة من عمره، وقد بدأ يتلقى العلم عن جده لأمه الشيخ المهدي في المدرسة الخيضرية مع أخيه محمد المنور.
ثم إن محمداً المنور سافر إلى الحج، وفي مكة المكرمة التقى شيخ الطريقة الشاذلية محمد الفاسي، فأخذ الطريقة عنه، ثم وجهه شيخه إلى اليمن، حيث أ قام فيها وتزوج وأنجب، وقد توفي فيها سنة (١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م). انظر ترجمة الشيخ محمد الطيب.

محمد الشيخ والد عبد القادر

ترعرع محمد في رعاية أمه وعنايتها، وقد بدأ على عادة أترابه في حفظ القرآن وتجويده[١]، وتلقى طرفاً من علوم العربية وغيرها عن بعض الأساتذة[٢]، ولربما اصطحبه أخواه محمد المنور ومحمد الطيب إلى المدرسة الخيضرية لسماع دروس جده لأمه الشيخ المهدي، وليحضر فيها إقامة الأذكار وقراءة الأوراد، بيد أنه ما إن أتمَّ الثالثة عشرة من عمره حتى توفي جده المهدي سنة (١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م)[٣]، فخلفه في المدرسة الخيضرية سبطه محمد الطيب، وكان في نحو الثامنة والعشرين من عمره[٤].

وكان الأمير عبد القادر الجزائري قد استقرَّ في دمشق منذ سنة (١٢٧١هـ/ ١٨٥٥م)[٥]، وسكن في حي العمارة في زقاق النقيب[٦]، فوجد فيه محمد الشيخ

(١) تعطير المشام للقاسمي: ٣/ ٢٧، المعاصرون لمحمد كرد علي: ٣٦٧.

(٢) تعطير المشام: ٣/ ٢٧.

(٣) حلية البشر: ٢/ ٧٥٨.

(٤) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

(٥) أعيان دمشق للشطي: ١٧٩.

(٦) ذكريات علي الطنطاوي: ٥/ ٤٣، وما زال بيته معروفاً إلى الآن.

بعد وفاة جده ذلك الأب الشفوق، فأقامه مقام والده[١]، ولم ينس الأمير عبد القادر ما كان لوالده محمد المبارك من أياد بيض في الثورة الجزائرية، فقربه إليه، وخصص له راتباً يتقاضاه كل شهر يعينه على أسباب الحياة[٢]، وعهد إليه بتعليم أولاده الصغار، وأراده أن يلقنهم القرآن بقراءة ورش، وهي القراءة السائدة في الجزائر، وكان محمد الشيخ يقرأ القرآن برواية حفص على عادة أهل الشام، فقصد الشيخ أحمد الحلواني الكبير، شيخَ قراء دمشق في عصره، وأخذ عنه قراءة ورش، ثم ألف له الشيخ الحلواني رسالة فيها، تيسيراً له على تلقينها[٣].

وكان للأمير عبد القادر مجالس علمية يعقدها في بيته، ويحضرها علماء عصره، وقد أصبح محمد الشيخ من روادها[٤]، بل إنه انقطع للأمير عبد القادر، فكان من الملازمين له[٥]، واتخذ بيتاً له قرب البيمارستان النوري في زقاق المحكمة[٦].

❁ ❁ ❁

ويبدو أن ما حصله محمد الشيخ من علم كان في أكثره من قراءته على نفسه، إذ لم يذكر له إلا شيخ واحد، هو الشيخ طاهر الجزائري[٧]، وهو أقرب

(١) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

(٢) المعاصرون: ٣٧٢.

(٣) المعاصرون: ٣٦٧ـ٣٦٨.

(٤) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٥) تعطير المشام: ٣/ ٢٧.

(٦) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

(٧) ذكر ذلك الشيخ جمال الدين القاسمي في «تعطير المشام»، والأستاذ محمد كرد علي في «المعاصرون»، أما حفيده الأستاذ محمد المبارك، فقد ذكر خلاف ذلك، إذ جعل طاهراً الجزائري تلميذاً لمحمد الشيخ، ورواية القاسمي وكرد علي هي الأرجح، لأن القاسمي كان صديقاً له، وكرد علي كان تلميذاً للشيخ طاهر الجزائري ومحمد الشيخ معاً، وقد =

للصديق منه للشيخ، إذ كان طاهر الجزائري يصغره بنحو أربعة أعوام[١].

ويبدو أن ما استفاده طاهر من أبيه صالح، وهو قاضي المالكية في دمشق[٢]، وما استفاده من شيخه عبد الغني الغنيمي الميداني[٣]، مع ما أوتي من ذكاء، وما عرف من ولعه بشراء الكتب منذ نشأته، وقراءتها بإمعان على صغره[٤]، قد أهّله للتصدي للتدريس في صباه، فكان محمد الشيخ ممن قرأ عليه[٥]، ثم ربطت بينهما صداقة امتدت طوال سني حياتهما[٦].

وكان محمد الشيخ على اشتغاله بالتصوف، متبعاً في ذلك سَنَن أبيه وجده، قد اهتم بعلوم التفسير والحديث والسيرة، وقرأ أمهات كتبها[٧]، واستجاز من علماء دمشق الشيخ بكري العطار، والشيخ أحمد بن محيي الدين الحسني الجزائري، أخا الأمير عبد القادر[٨]، غير أن الأدب هو أكثر ما استهواه من الفنون، وكان قد أوتي حافظة عجيبة، مكّنته من حفظ مقامات الحريري في خمسين يوماً[٩].



= صحبهما زماناً، وعرف من أخبارهما ما لم يعرفه غيره. انظر «تعطير المشام»: ٣/ ٢٧، و«المعاصرون»: ٣٧٢، وكتاب «محمد المبارك»: ص١٥.

(١) ولد الشيخ طاهر الجزائري سنة (١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م)، وكان والده محمد صالح من مريدي الشيخ محمد المهدي السكلاوي، وهاجر معه إلى دمشق، وشيخه هو من سمى ابنه «الطاهر» حين ولد. انظر «كنوز الأجداد»: ص٩.

(٢) كنوز الأجداد: ص٩.

(٣) المصدر السالف.

(٤) كنوز الأجداد: ص١٠.

(٥) المعاصرون: ٣٧٢.

(٦) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٧) المعاصرون: ٣٦٧.

(٨) وثيقة النسب، وانظر «تاريخ علماء دمشق»: ١/ ١٩٣، ١٩٧.

(٩) تعطير المشام: ٣/ ٢٧، المعاصرون: ٣٦٧.

وشهدت دمشق في عهد واليها المصلح مدحة باشا نهضة في إنشاء المدارس الابتدائية، وكان الشيخ طاهر الجزائري قد عُيِّن مفتشاً عاماً عليها، وكان له أثر عظيم في تأسيسها، واستخلاص المدارس القديمة من غاصبيها[١]، فشاركه محمد الشيخ في تأسيس بعضها، فكانت مدرسة الحبَّال في القيمرية التي أنشأها ثالث مدرسة ابتدائية في دمشق بعد المدرسة الجقمقية ومدرسة الشيخ الصوفي[٢]، ولما افتتحها كانت شيئاً جديداً مفرداً[٣]، وغدت بعد من أشهر المدارس في دمشق[٤].

ثم أنشأ مدرسة في محلة الحيواطية بالشويكة، وكان فيها جالية من الجزائر[٥].

ثم درَّس مدة قصيرة في قرية داعل بحوران[٦].

وبعد ذلك أنشأ المدرسة الريحانية الابتدائية في زقاق المحكمة[٧]، وكانت

---

(١) كنوز الأجداد: ١٠ـ١١.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي: ٧/ ١٧٤.

(٣) المصدر السالف.

(٤) ذكريات علي الطنطاوي: ٥/ ٢٥٩.

(٥) المعاصرون: ٣٧٢.

(٦) المصدر السالف.

(٧) المصدر السالف.

والمدرسة الريحانية بناها جمال الدولة ريحان، والي قلعة دمشق، وأحد رجال نور الدين محمود بن زنكي، وذلك سنة (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)، وكانت في حارة البلاطة، غربي المدرسة النورية، وقرب المدرسة الجوهرية، فيما يسمى الآن زقاق المحكمة. وقد هدمت هذه المدرسة الأثرية سنة (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٥م) حين افتتح الشارع الموصل إلى دار أسعد باشا العظم. انظر «كتاب الروضتين»: ٢/ ٣١٨، ٣٢٨، ٣٤٠، و«منادمة الأطلال»: ص١٧٢، و«في رحاب دمشق» لدهمان: ص٨٦، و«ذكريات علي الطنطاوي»: ٥/ ٢٥٨، و«خطط دمشق» للعلبي: ص١٩٠.

تعنى بتدريس الفقه والعلوم الشرعية واللغة العربية[١]، إلى جانب العلوم المدنية كالحساب والهندسة[٢]، وقد تخرج بها أفواج من المتعلمين، منهم الشيخ محمد بهجة البيطار[٣].

❁ ❁ ❁

ولعلَّ الفاجعة الأكبر في حياته كانت حين توفي الأمير عبد القادر سنة(١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)[٤]، فرثاه بقصيدةٍ ضمنها في كتابه «لوعة الضمائر في رثاء عبد القادر»، وحين كان يتفق له ذكره أحياناً يبكي ويجهش بالبكاء، ويترحم عليه كثيراً[٥]، وقد أنشأ في حياته قصائد كثيرة في مدحه، ولم يمدح أحداً غيره قط[٦].

ولما بلغ محمد الشيخ الثامنة والأربعين من عمره، توفي أخوه الشيخ محمد الطيب، وذلك سنة (١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م)، فخلفه في المدرسة الخيضرية[٧]، والتف حوله تلاميذه ومريدوه، وصار يقرأ لهم كتباً في الرقائق والمواعظ ليلتين في الأسبوع[٨]، ويقرأ لهم في سائر أيامه من كتب التصوف: الفتوحات المكية، والرسالة القشيرية، وقواعد التصوف لابن رزوق، وفي الفقه المالكي يقرأ لهم رسالة القيرواني، ويقرأ لهم السيرة النبوية لابن هشام، ومقامات الحريري،

(١) النور والنار: ص٥١.

(٢) المعاصرون: ٣٧٢، وانظر نشرة المدرسة التي طبعت سنة (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م).

(٣) تاريخ علماء دمشق: ٢/ ٩١٨.

(٤) أعيان دمشق: ص١٨٣.

(٥) المعاصرون: ٣٧٢.

(٦) تعطير المشام: ٣/ ٢٧، تاريخ علماء دمشق: ١/ ٢٧٥.

(٧) ترجمة الشيخ محمد الطيب.

(٨) تعطير المشام: ٣/ ٢٧، تاريخ علماء دمشق: ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

ومقامات الهمذاني، وأطواق الذهب للزمخشري، والمثل السائر لابن الأثير[١]. وفي رمضان كان يقرأ لهم صحيح البخاري[٢].

وكان يعلق على هذه الكتب ويشرحها[٣]، ويجيد تصحيح ما يقرؤه منها، ويراجع لضبطها كتب اللغة، ويقابلها بأصولها، والفضل في ذلك لأستاذه وصديقه الشيخ طاهر الجزائري، فإنه كان يشير عليه بمثل ذلك[٤]، وما خلفه من تعليقاته عليها، ومنها نموذجات في دار الكتب الظاهرية، تدل على بعد نظره، ووفرة تحقيقاته اللغوية والأدبية[٥]، وكثيراً ما كان يستعير كتبه المصححة وينظر فيها الشيخ جمال الدين القاسمي، لما كان بينهما من مودة وصحبة[٦].

بيد أنه لشغفه بالأدب قد صرف قلمه إليه، فلم يؤلف إلا فيه، حتى عُدَّ أحد أفذاذ الأدباء في عصره[٧]، غير أنه كان أديباً على طريقة أدباء القرن التاسع عشر الميلادي[٨]، فقد سطا السجع والترصيع والازدواج على أسلوبه، ولم يستطع التفلت من سطوته[٩]، وما تركه من كتب تشهد على براعته وتمكنه، فمن مؤلفاته:

- أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والإقامة.
- بهجة الرائح والغادي في أحاسن محاسن الوادي.
- غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسماء.

---

(١) المعاصرون: ٣٦٨.

(٢) منادمة الأطلال: ص٥.

(٣) المعاصرون: ٣٦٧.

(٤) تعطير المشام: ٣/ ٢٧، ٢٩.

(٥) المعاصرون: ٣٦٧.

(٦) تعطير المشام: ٣/ ٢٧.

(٧) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢٠.

(٨) المعاصرون: ٣٧٢.

(٩) المعاصرون: ٣٦٩.

- نضرة البهار في محاورة الليل والنهار.
- لوعة الضمائر في رثاء عبد القادر.
- معارج الارتقاء إلى سماء الإنشاء.
- المقامات العشر لطلبة العصر.
- المقامة اللغزية والمقالة الأدبية.

وله قصائد في مدح دمشق، كان قد اقترحها عليه صديقه الشيخ جمال الدين القاسمي، وضمنها في كتابه «تعطير المشام»[١].



وفي آخر حياته اعتراه مرض ألزمه بيته، وقد تجلد في تحمله وتصبَّر له[٢]، حتى وافته منيته في ضحوة يوم الثلاثاء (٥) جمادى الآخرة سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م)[٣] في بيته بالصالحية[٤]، فصُلِّي عليه بجامع الشيخ محيي الدين بن عربي، ثم حُمل إلى مقبرة نبي الله ذي الكفل بالمهاجرين، فدفن في قبر أبيه[٥]، وله من العمر أربع وستون سنة.

ومن أشهر من تخرج به عالمان جليلان، أحدهما الأستاذ محمد كرد علي، وكان قد درس عليه الابتدائية في مدرسة الحبَّال بالقيمرية[٦]، ثم صحبه زماناً يأخذ الأدب عنه[٧].

وأما الآخر، فابنه الشيخ عبد القادر المبارك.

---

(١) تعطير المشام: ٣/ ٢٧.

(٢) تعطير المشام: ٣/ ٢٩.

(٣) وهو العام نفسه الذي ولد فيه حفيده الأستاذ محمد المبارك.

(٤) تعطير المشام: ٣/ ٢٩.

(٥) تاريخ علماء دمشق: ١/ ٢٧٨.

(٦) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢٠، ٥/ ٢٥٩، ٧/ ١٧٤.

(٧) المعاصرون: ٣٦٩.

ولادة عبد القادر ونشأته

ولد عبد القادر المبارك سنة (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)[١]، وقد سمّاه الأمير عبد القادر الجزائري باسمه، تعبيراً عن محبته لأبيه[٢].

وفي كنف والده الأديب العالم نشأ وترعرع، حتى إذا بلغ السعي كان يرافقه إلى حلقات العلم التي كان يعقدها في بيوت مريديه[٣]، ويحضر مجالسه الأدبية والوعظية[٤].

ولما ناهز الحلم انتظم مع طلاب مدرسة الحبَّال في القيمرية، تلك المدرسة التي أنشأها أبوه، فدرس فيها الابتدائية، وكان رفيقَه في الدراسة فيها صبيٌّ من أترابه هو محمد كرد علي[٥]، فانعقدت بينهما صحبة ومودة كتب لها أن تدوم وتثمر[٦].

---

(١) هذا التاريخ هو ما أثبت في تذكرة نفوسه، وقد ورد في مجلة المجمع أنه ولد سنة (١٨٧٨م)، أي بعد سنتين، والأمر قريب، أما الزركلي فذكر أنه ولد سنة (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م)، وإخاله خطأ، انظر «مجلة المجمع»: مج٢١/ ج١-٢/ ص٨١، والأعلام للزركلي: ٤/ ٤٥.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) ترجمة الشيخ عبد القادر المبارك لهاني المبارك.

(٤) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١-٢/ ص٨٢.

(٥) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢٠، ٥/ ٢٥٩.

(٦) المعاصرون: ص٣٧٠.

ثم أرسله أبوه إلى المدرسة الرشدية العسكرية[١]، وكان مقرها بالبحصة[٢]، غير أنه سرعان ما تركها، إذ يبدو أن مناهجها لم تعجب أباه، فأخرجه منها[٣].

في تلك الفترة توفيت والدته عائشة[٤]، فاتخذ له أبوه غرفة في مسجد نور الدين محمود بن زنكي في سوق الخياطين، مطلة على المدخل، وأسكنه فيها، وبدأ يحثه على طلب العلم[٥].

وانكب الفتى عبد القادر على القراءة، يعينه عليها الشيخ طاهر الجزائري صديق والده وأستاذه، وكان عبد القادر يختلف إليه[٦]، ويحضر دروس الشيخ أمين سويد، والشيخ عطا الكسم[٧]، ويلازم دروس الشيخ بدر الدين الحسني، وكان شديد الحب له[٨]، فمما قرأ على شيوخه التفسير والحديث والفقه وعلوم العربية، وقد برع في تلك العلوم على حداثته[٩]. غير أنه أظهر ميلاً للغة العربية[١٠]، وحباً لها، فآثر الاختصاص بها، وأدرك أبوه ذلك منه[١١]، فأوصاه بالتعمق بدراستها[١٢].

---

(١) انظر عن المدرسة الرشدية ونظامها كتاب «دمشق في مطلع القرن العشرين»: ص٢٣٠ـ٢٣١.

(٢) النور والنار: ص٢١.

(٣) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

(٤) فتزوج والده بعد وفاة أمه غير أن امرأته لم تنجب له أولاداً.

(٥) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

(٦) مجلة المجمع: مج٢٦/ ١/ ٤٥٩.

(٧) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١ـ٢/ ص٨٢.

(٨) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

(٩) مجلة المجمع: مج٢٦/ ١/ ٤٥٩.

(١٠) مجلة المجمع: مج٢١/ ١ـ٢/ ص٨٢.

(١١) مجلة المجمع: مج٢٦/ ١/ ٤٥٩.

(١٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

ولمزيد اهتمامه به وضع له أبوه منهاجاً لدراستها، وكان يتفقده في غرفته في المسجد ليرى ما أنجز منه.

وذات يوم جاءه أبوه، فوجده يكتب في أوراقه كلمات، فسأله: ماذا تكتب؟ فقال الفتى: أسجل أسماء المقامات التي اخترتها من مقامات الحريري كي أحفظها، فقال له أبوه: وهل يختار من المختار؟ احفظها كلها[١].

وقد كان لصحبته للشيخ طاهر الجزائري أثر كبير في قراءاته، إذ كان يوجهه إلى قراءة الكتب النفيسة[٢]، ويغريه بها، حتى إنه صار يقضي معظم نهاره وليله في المطالعة، وعُرف بعشقه للكتاب، فما كان يُرى إلا والكتاب برفقته[٣]، فاتسعت مداركه، وزادت ثروته اللغوية لكثرة قراءاته في كتب اللغة، وحفظ نصوصها، وأصبحت المعاجم اللغوية في صدره[٤]، وقادته اللغة إلى تجليها السَّامي في الشعر الجاهلي، فصار له ولع خاص به، وزاده غنى ما كان يتلقاه عن أبيه من معارف لغوية وأدبية[٥]، واستهوته السيرة النبوية فكان يحفظها عن ظهر قلب[٦].

وحين آنس منه أبوه اقتداراً على التأليف رغب إليه أن يتوفر على شرح القصيدة اللغوية المشهورة بالمقصورة الدريدية، فتورَّك عليها، وأنجز لها شرحاً كبيراً في مجلدين كان في غاية الإحكام والتنسيق[٧].

❁ ❁ ❁

(١) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) ترجمة الشيخ عبد القادر لهاني المبارك.

(٤) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٥) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١-٢/ ص٨٢.

(٦) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٧) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١-٢/ ص٨٢، ومج٢٦/ ١/ ٤٥٩.

ولم ينس عبد القادر في غمرة ما هو فيه أن يحصل إجازات من علماء عصره، فكان ممن أجازه أبوه الشيخ محمد المبارك، والشيخ محمد أديب بن محمد الكيلاني مفتي العسكر، والشيخ محمد حكيم زاده، والشيخ عبد الباقي بن محمد سعيد الجزائري، مفتي المالكية في دمشق، والشيخ عبد الرحمن بن محمد الطيبي، مفتي لواء حوران، والشيخ الحسين بن محمد بن علي بن عمار بن زيان الحسني الجزائري، والشيخ محمد أبو الخير عابدين[1].



(١) وثيقة النسب والإجازات.

مكتب النجاح

وعلى خطا أبيه في التعليم مشى عبد القادر، وهو في رَيِّق شبابه، لم يجاوز السابعة عشرة من عمره، فافتتح مكتب النجاح في العمارة في زقاق النقيب عام (١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م)[١]، فكان مؤسِّسَه ومديرَه والمعلِّمَ فيه، ويساعده في التدريس الشيخ محمد سليم الحنفي[٢].

ولأن التعليم في ذلك الوقت كان باللغة التركية في جميع المدارس الحكومية[٣]، أطلق على مكتب النجاح «المدرسة العربية» تمييزاً لها عن تلك المدارس[٤].

وكان المكتب قديماً مسجداً بناه كمال الدين حمزة في القرن العاشر الهجري[٥].

---

(١) هذا ما ذكره الشيخ محمد سليم الحنفي في الوثيقة التي ذكرت انفكاكه عن التدريس في المكتب. أما مجلة المجمع فذكرت أنه افتتح هذه المدرسة سنة (١٩٠٥م)، وإخاله خطأ، انظر «مجلة المجمع»: مج٢١/ ج١ـ٢/ ص٨٢.

(٢) وثيقة النسب والإجازات، ومذكرات الشيخ محمد أحمد دهمان: الورقة ٣٩.

(٣) من حاضر اللغة العربية لسعيد الأفغاني: ص٢٢ـ٢٤.

(٤) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٥) مذكرات الشيخ محمد أحمد دهمان: الورقة ٣٩.

=

وكان فيه صفوف ثلاثة، أرفعها الصف الأعلى، وكان يدخله من يحسن القراءة والكتابة، ويقوم عبد القادر على أكثر دروسه، فكان يدرِّس فيه التوحيد والفقه والنحو والعروض والتاريخ، فمما درسه في التوحيد «رسالة التوحيد أو العقائد» لمحمود أفندي حمزة، و«رسالة التوحيد» للشيخ طاهر الجزائري، ودرَّس في الفقه «كفاية الغلام» للشيخ عبد الغني النابلسي، و«بداية الهداية» للإمام الغزالي، وفي النحو كان يشرح «ألفية ابن مالك»، وفي العروض كان يدرِّس منظومة في بحور الشعر للشيخ يوسف النبهاني.

وأما في التاريخ فكان يختار نصوصاً من أحد كتب التاريخ، ويشرحها، وفي السيرة النبوية كان يقرأ للطلاب «الشمائل النبوية» للإمام الترمذي(١).

وكان يستفيض بالشرح في دروسه كلها، ثم لا يكتفي بذلك، بل كان يحاور الطلاب ويناقشهم فيما سمعوه حتى يسبر عمق فهمهم، وكان يعرج في دروسه على الأمور الاجتماعية، ويبصرهم بشؤونها، ويحرّك هممهم نحو معالي الأمور، وكثيراً ما كان يسأل طلابه عن المستقبل، وما يطمحون أن يحققوا فيه(٢).



= وقد ولد كمال الدين حمزة سنة (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) وتوفي سنة (٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م) وكان شيخ الإسلام في عصره.

وفي هذا المسجد نزل الشيخ عبد القادر البغدادي صاحب «خزانة الأدب» حين قدم دمشق. انظر «شذرات الذهب»: ٨/ ١٩٤ـ١٩٥، و«ثمار المقاصد»: ص٢٤٨، و«خلاصة الأثر»: ٢/ ٤٥١ـ٤٥٢.

(١) مذكرات الشيخ محمد أحمد دهمان: الورقة ٣٩ـ٤٠. وكان دهمان من طلابه وقتئذ.

(٢) المصدر السالف.

وكان يزور مكتب النجاح في بعض الأحيان الشاعر الشيخ عبد الرحمن القصار[١]، لما كان بينه وبين الشيخ عبد القادر المبارك من محبة وصداقة، وكان الطلاب يفرحون بقدومه لما يسمعون من روائع شعره[٢]، وقد ألقى قصيدة ذات يوم يقارن فيها بين الكتاتيب القديمة ومكتب النجاح، يقول في مطلعها:

ذَهَبَ الجهلُ هباءً وشَرَدْ ... قُلْ إلى حيث انتهتْ أمُّ الوَلَدْ
وتولى الزَّيغُ يقفو إثْره ... حيث جيشُ العِلْم وافى بالمَدَدْ
طالما من قبلُ قاسينا الوَجَى ... بعناءٍ لم يفد غيرَ الكَمَدْ
بين أشياخٍ ضغابيس ثَوَوْا ... بكتاتيبَ بها العِلْمُ كَسَدْ
فانبرى للعلمِ أعلامٌ بهم ... يتباهى العصر دوماً للأبدْ
أيقظوا الأفكارَ من رَقْدَتها ... وشفَوْها من معاناةِ الكَبَدْ

ثم يقول حاثاً للطالب على العلم، ومادحاً الشيخ عبد القادر:

يا أخا العقلِ اجتهدْ في طلب الـ ... ـعِلْم واصبرْ كلُّ مَنْ جَدَّ وَجَدْ
واجهدِ النفسَ كما قد جهد الـ ... شهْم عبد القادر السَّامي المُجِدّ
فَرْعُ أصلٍ طاب غَرْساً وجنى ... ولذا في ثمر الفَضْلِ انفردْ
شمسُ علمٍ ما اقتدى فيه مريـ ... ـدٌ من الطُّلابِ إلا وَرَشَدْ
فَطِنٌ لُغْويٌّ[٣] نُطْقٍ حاذقٌ ... باللغاتِ العُرْب رِدْءٌ وسَنَدْ
ألمعيٌّ قد سمت فيه المعا ... رف أسمى منهج قاصي الأمدْ

---

(١) توفي الشيخ عبد الرحمن القصار سنة (١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م)، انظر ترجمته في «تاريخ علماء دمشق»: ١/ ٤٣٧ ـ ٤٤٠.

(٢) مذكرات الشيخ محمد أحمد دهمان: الورقة ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) سُكِّنت الغين لضرورة الشعر.

أرشَدَ الطُّلابَ للنَّهْجِ القويـ ـمِ ففازوا «بنجاحٍ» للأبد[١]

وهكذا غدا مكتب النجاح بفضل عبد القادر أرقى مكتب في ذلك العصر[٢]، وقد استمر على رعايته وتحسينه نحو سبعة عشر عاماً، حتى إذا كانت سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) أقامت الحكومة مسابقة لاختيار أستاذ لتدريس اللغة العربية في المكتب الملكي الإعدادي[٣]، ففاز عبد القادر في المسابقة فوزاً مبيناً[٤]، وبتركه التدريس فيه أخذ مكتب النجاح يأفل نجمه حتى تلاشى[٥].



(١) القصيدة مؤرخة في (٢٥) ربيع ثاني سنة (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، وهي محفوظة في مكتبة د. مازن المبارك.

(٢) مذكرات الشيخ محمد أحمد دهمان: الورقة ٤٢.

(٣) وثيقة النسب والإجازات، ومذكرات الشيخ محمد أحمد دهمان: الورقة ٤١.
وفي مجلة المجمع مج٢٦/ ١/ ٤٥٩: لاختيار أستاذ لتدريس اللغة العربية في المدرسة السلطانية بدمشق، والمثبت من الوثيقة هو الصواب، لأن مكتب عنبر كان يسمى في ذلك الوقت المكتب الملكي الإعدادي، ثم حين أضيف إليه التعليم الثانوي صار يسمى المدرسة السلطانية، انظر ص٤٧ من هذا الكتاب.

(٤) مجلة المجمع: مج٢٦/ ١/ ٤٥٩.

(٥) مذكرات الشيخ محمد أحمد دهمان: الورقة ٤٢.

عودة الدستور

كانت دمشق مع سائر الولايات العثمانية تعيش في تلك الفترة تحت وطأة استبداد السلطان عبد الحميد الثاني، فمنذ أن أُعلن الدستور أول مرة سنة (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)[١]، وهو يسعى للتخلص منه، حتى استطاع أخيراً تعليقه سنة (١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م) متخذاً من اندلاع الحرب الروسية العثمانية ذريعة لذلك[٢].

وكان طوال فترة حكمه يحاول جمع شتات الولايات العثمانية المتبقية من الامبراطورية العثمانية بدهائه وحنكته السياسية، وذلك على حساب سياسته الداخلية التي غالى فيها بالاعتماد على جهاز الجاسوسية والاستخبارات، فخنق الحريات، وبث عيونه في أرجاء الامبراطورية، وهو قابع في قصره، وقد استبد به هاجس الانقلابات ضده[٣].

وكان صفوة العلماء والمتعلمين في دمشق في ذاك الوقت تلتف حول الشيخ طاهر الجزائري، الذي كان يدعو إلى الإصلاح، وذلك بتعلم العلوم العصرية، ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي، وآداب اللغة العربية، وممن التف حوله

---

(١) تركية الفتاة وثورة (١٩٠٨م): ص٤٣ـ٤٤.

(٢) المصدر السالف.

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية: ص٨٠ـ٨١.

الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ سليم البخاري، ثم التحق بهم من كانوا دونهم في السن مثل الأستاذ محمد كرد علي، ورفيق العظم، وعبد الرحمن الشهبندر، وغيرهم[١]، ولا ريب أن عبد القادر كان يختلف إليه معهم.

وبرغم ما كان يقوم به الشيخ طاهر الجزائري من خدمات للدولة، من افتتاح المدارس، وتأليف المناهج، وتجميع المخطوطات في المكتبة الظاهرية، فقد ضيق عليه رجال الاستخبارات، ودخلوا مسكنه عنوة، وعاثوا فيه فساداً، فاضطره ذلك إلى مغادرة دمشق، والهجرة إلى مصر سنة (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م)[٢].

وكانت الأصوات تتعالى مطالبة بعودة الدستور، وإطلاق الحريات، وكان صوت جمعية الاتحاد والترقي من أعلى الأصوات وأقواها، لما تحظى به من تأييد قوي من ضباط الجيش، ومن بعض العلماء[٣]، ولا سيما أنها كانت تدعو إلى الإبقاء على وحدة السلطنة العثمانية، والتقدم بها إلى مصاف الدول العظمى، وهو ما اختصره شعارها «الاتحاد والترقي»[٤].

وقد قادت هذه الجمعية المعارضة المطالبة بإعادة الدستور حتى تمَّ لها ذلك في سنة (١٣٢٦هـ/ ٢٤تموز ١٩٠٨م)[٥].

وعمت الأفراح بعودة الدستور جميع الولايات العثمانية[٦]، وأقيمت في

(١) محاضرات عن القومية العربية، مصطفى الشهابي: ص٥١.

(٢) كنوز الأجداد: ص١٠ـ١١، ١٧، الشيخ طاهر الجزائري، د. عدنان الخطيب: ص١١١ـ١١٢.

(٣) منهم الشيخ محمد رشيد رضا، انظر رحلات الإمام محمد رشيد رضا: ص٢٥ـ٢٧.

(٤) الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة: ١/ ١١٨ـ١١٩.

(٥) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨: ص١٤٩.

(٦) انظر مقتطفات من تعبيرات أدب الفرحة بعودة الدستور في «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث»، أنيس المقدسي: ص٧٦ـ٨٣.

دمشق الاحتفالات والمسارح[١]، وخرج الناس في فرح وجذل[٢] إلى الحارات يهتفون للحرية التي طال انتظارها، ويبدو أن بعض مهرجانات الأفراح هذه قد تحولت إلى دعوة للانتقام من رجال العهد الحميدي، وكادت تعمّ دمشق الفوضى تغذيها الأحقاد، فسارع عبد القادر المبارك يحاول لجم هذا الغضب المكبوت قبل انطلاقه من عقاله، فنظم قصيدة طويلة سمّاها «بكر الشرق، تباشير الأنوار الشرقية»[٣]، وأذاعها على الناس بعد نحو شهر من إعلان الدستور، عبّر فيها عن تأييده لوحدة الدولة في ظلِّ الخلافة، واصفاً فيها فرحة الأمة بعودة الدستور، وقد عانى هو ما عانى من غيابه:

لقد عمّتِ الأفراحُ أفئدةَ الورى ... ومنها على كلِّ الوجوه لوائحُ
بأعظم نُعْمى للرَّعايا لهم بها ... جلالة مولانا الخليفة مانحُ
بحريةِ الإنسانِ فيما يخصُّه ... وهذا له كلُّ امرئٍ فيه صالحُ
بإطلاقنا من قيد سُلْطةِ عُصْبةٍ ... لهم في مَضَرَّات العبادِ مصالحُ
حُللنا وأُطلقنا وفُكَّ إسارنا ... وناحتْ على أَهْلِ التعدِّي النَّوائحُ

ثم يمدح الجيش الذي كان له الفضل الأكبر في إعادته:

وها هو فَضْلُ الجيشِ معْ ضابطانه ... بآثاره كالشَّمْسِ في الشَّرْقِ لائحُ

بيد أن الفرح لم يعمه عن تبصر العواقب، فالغرب ما زال طامعاً في الامبراطورية، فعلى الجيش ألا يستنيم إلى هذا الإنجاز الكبير:

ويا ضابطان الجيش تتميمَ فَضْلِكُمْ ... بأن لا تناموا اللَّيلَ فالذِّئْبُ سارِحُ
فلا تُلْهِكُمْ منا عن الغربِ صيحةٌ ... فكمْ جَلَبَ الجيشَ العَرَمْرَمَ صائِحُ

---

(١) مكتب عنبر لظافر القاسمي: ص١٠٠ـ١٠٢.
(٢) خطط الشام، لمحمد كرد علي: ٣/ ١١٨.
(٣) نشرت القصيدة في غرة شعبان (١٣٢٦هـ/ ٢٩ آب ١٩٠٨م)، وهي في ملحق هذا الكتاب.

ولن نستطيع الوقوف في وجهه، والأمة متدابرة متنابذة متفرقة، فقد تركت سنوات الاستبداد جروحاً غائرة فيها، وعداوة وبغضاء، وهي الآن بحاجة إلى التناصح والتعاضد وانمحاء الضغائن:

ويا ضابطان الجيش لُطْفاً تَثَبُّتاً هدوّاً سُكُوناً رَيْثَ تَصْفُو القرائحُ
فحاجتُنا الآنَ اعتدالٌ تَأَلُّفٌ ملاطفةٌ رِفْقٌ تواصٍ تناصحُ
وحاجتُنا الآن اتِّفاقٌ تعاضُدٌ مساعدةٌ عَطْفٌ تآخٍ تصالحُ
وحاجتُنا الآنَ ائتلافٌ تحابُبٌ تناسي مساوٍ للصَّلاحِ تجانحُ

ومن ثمَّ يدعو الجيش إلى حسن السياسة، والرفق بالرعية، وأن يكمل ما بدأه من إشاعة العدل والحرية:

فيا ضابطان الجيش حُسْنَ سياسة برِفْقٍ وإلا اسْتَأْصَلَتْنا الجوائحُ
فإن أنتمو تممتموا ما بدأتموا فأنتمْ لأبوابِ التَّرقِّي مفاتحُ

ثم يلتفت إلى الشعب، منبهاً له بأن الحرية ليست في قولنا: نحن أحرار، وإنما الإنسان الحر حقاً هو من يقدس حرية الآخرين، وليست الحرية في الطيش والفوضى، وإظهار العداوة والبغضاء، والتهجم على الآخرين، والاستطالة عليهم(١):

يا أيها الشَّعْبُ المقدَّسُ مُلْكُهُ أترضى بأَنْ تُعْزى إليكَ القبائحُ
أترضى وكلا لستَ ترضى لبعضِنا بإظهاره ما للعواطفِ جارحُ
أغايةُ هذا الحال فينا تَشَدُّقٌ بلفظ «لْتعشْ حُرِّيَّةٌ» وتفاصحُ
أَحُرِّيَّةُ الإنسانِ للطَّيْشِ تقتضي لِيَشْمَتَ بالشَّعْبِ الحسودُ المكاشِحُ
أيطلبُ حِزْبُ الحُرِّ طَيْشاً وخِفَّةً وهَرْجاً ومَرْجاً كي تضيعَ الصَّوالحُ

والنصيحة التي لا يتلجلج عبد القادر في إسدائها:

---

(١) وانظر كتاب «شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام» د. أمجد الطرابلسي: ص٢٦ـ٢٧.

فيا قوم فلنعملْ ولا نقتصرْ على　　تبجُّحِنا بالقَوْلِ فالقولُ طائحُ

وما دامت الحرية قد عادت، فالامبراطورية تعيش الآن أجمل أيامها، وشعوبها تتمتع بالرابطة العثمانية في ظل الخلافة والجيش، فهما يتعاونان على حمايتها:

وما بقي السُّلْطانُ والجيشُ هكذا　　فلا تختشوا ضَيْماً وبالحقِّ صارحوا

ويا أيُّها الأقوامُ طُرّاً تهنَّؤوا　　بحقٍّ به الوِجْدَانُ أضحى يصارحُ

روابطُ عثمانيةٌ جمعتْكمو　　كما ضَمَّ بين الرَّاحتينِ تَصَافحُ

❁ ❁ ❁

هذه النظرة المتفائلة لم تدم طويلاً، فهل كان عبد القادر المبارك، وهو يخاطب الجيش طالباً منه الرفق بالرعية يستشعر ما سيؤول إليه حاله وقد ذاق حلاوة السلطة؟ وهل كان يستشعر حقاً ما ستؤول إليه سياسة جمعية الاتحاد والترقي، وقد فاقت في استبدادها استبداد السلطان عبد الحميد؟

فلم ينقضِ على إعلان الدستور سوى أشهر قليلة حتى دبرت جمعية الاتحاد والترقي انقلابها الثاني، فخلعت السلطان عبد الحميد في (١٣٢٧هـ/ ٢٧ نيسان ١٩٠٩م)، ونصبت السلطان محمد رشاد الخامس، الذي صار ألعوبة في يدها، واستبدت بالسلطة، وسحقت معارضيها[١]، واتجهت نحو تطبيق سياسة مركزية شديدة، تقضي بصهر جميع عناصر سكان الامبراطورية في بوتقة الطورانية[٢]، وقد أدى ذلك إلى انفضاض من تعاطف معها من العلماء[٣].

وأفزع عبد القادر ما تتعرض له الأمة بسبب هذه السياسة من تمزيق شملها

(١) الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة: ١/ ١٢٩ـ١٣٠.

(٢) الحكومة العربية في دمشق، للدكتورة خيرية قاسمية: ص١٨.

(٣) السلطة والمجتمع والعمل السياسي (من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام) لوجيه كوثراني: ص١٦٩ـ١٧١.

بين ترك وعرب، فحاول جاهداً تذكيرها بنعمة الإخاء بين أبنائها على اختلاف قومياتهم، فما يجمع بين الأمة هو الرابطة العثمانية التي بها تستطيع الوقوف في وجه الأطماع الغربية:

حمى التُّرْكَ والعُرْبَ الكرامَ من الرَّدَى حسامُ إخاءٍ لا يزال مجرَّدا
حسامُ إخاءٍ قد أَمِنَّا بحفظه على عِقْدِ شَمْلِ الشَّعْبِ أَنْ يتبدَّدا
لحى اللهُ من يَغْدو ببُهْتانِ قَوْلِهِ لنيرانِ شَحْناءِ العناصر مُوْقِدا
أيبغونَ قَسْمَ الشَّعْبِ لادَرَّ دَرُّهُم طوائفَ شتَّى حسبما يَشْتهي العِدى؟
فيا ويحكُمْ خَلُّوا العناصرَ وابتغوا سلامةَ شَرْقٍ فَجْرُ إصلاحِهِ بدا
عناصِرُ هذا الشَّعْب ضَمَّتْهُمو عُرى روابطَ عثمانيةٍ تدفعُ الرَّدى[1]

غير أن عبد القادر وقد رأى سياسة التتريك ماضية في طريقها بدأ يبتعد عن الرابطة العثمانية، ويدعو مع الداعين إلى اللامركزية، والعناية باللغة العربية، وإحياء التراث العربي[2].



(١) «محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام» د. أمجد الطرابلسي: ص٣٨.
وكان الشيخ عبد القادر قد نشر القصيدة في جريدة المقتبس الدمشقية في (١١ آذار ١٩١١م).
(٢) الشيخ عبد القادر المبارك، لهاني المبارك.

دمشق
في العهد الفيصلي

انتقل عبد القادر المبارك من مكتب النجاح إلى المكتب الملكي الإعدادي[(١)] سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) ليدرِّس فيه العلوم الدينية والعربية[(٢)]، وكان الغالب عليه

---

(١) هو المعروف بمكتب عنبر، نسبة إلى بانيه يوسف عنبر، وهو من أثرياء اليهود في دمشق، شرع في بنائه سنة (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م)، ثم آل إلى الحكومة العثمانية لدينٍ كان لها عليه، فجعلت منه مدرسة إعدادية سنة (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م).
وكان أدنى صف فيه هو الصف السادس، وينتهي بالصف التاسع، ومن ثم سمي مكتب إعدادية ملكية كما كتب على واجهته الرخامية.
ثم لما أكملت صفوفه حتى الحادي عشر، سمي سلطاني مكتبي، أي المدرسة السلطانية، وكانت تعني المدرسة الثانوية، غير أن لوحته الرخامية لم تبدل في مدخل البناء.
ثم سمي في العهد الفيصلي مدرسة التجهيز، فكان هو الثانوية الرسمية الوحيدة في دمشق.
وهو يقع في محلة تسمى الخراب في السوق الطويل، الذي يصل باب الجابية بالباب الشرقي.
انظر عن مكتب عنبر «النور والنار» ص٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، و«ذكريات علي الطنطاوي»: ١/ ٥٣، ١٠٦، ١١٩، وقد أفرد الأستاذ ظافر القاسمي كتاباً عنه سمّاه «مكتب عنبر».
(٢) انظر ص٤٠ من هذا الكتاب.

في ذلك الوقت الطابع التركي، فقد كانت لغته وكتبه وتدريسه بالتركية[١]، وكان عبد القادر يجيدها إجادة تامة[٢].

ولم ينقض على تدريس عبد القادر فيه سوى ثماني سنوات حتى وقع حدث غيَّر وجه دمشق، ونقلها من حال إلى حال.

كانت الثورة العربية ضد الأتراك قد أُعلنت بمكة المكرمة في حزيران سنة (١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م) بقيادة الشريف حسين، وبالتعاون مع بريطانيا[٣].

وكان احتلال العقبة في تموز سنة (١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م) مؤذناً بوصول جيش الثورة إلى دمشق، إذ أحاطت قواتها بها في مساء (٣٠) أيلول (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) لتدخلها في صباح أول تشرين الأول مع القوات البريطانية، منهية بذلك الوجود التركي الذي دام نحو أربعة قرون[٤].

وبعد يومين، دخلها الأمير فيصل بن الحسين، قائد جيش الثورة، وقد استقبل فيها بمشاعر البهجة والفرح من غالبية السكان، وإن ظلت عواطف بعض الناس عثمانية[٥].

وكان عبد القادر المبارك من المرحبين بالثورة، فقد ضاق ذرعاً باستبداد الاتحاديين وظلمهم[٦].

❁ ❁ ❁

(١) النور والنار: ص٢٥ـ٢٦.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) الحكومة العربية في دمشق: ص٣٠.

(٤) الحكومة العربية في دمشق: ص٣٢، ٣٣.

(٥) المصدر السالف: ص٣٣، ٣٥.

(٦) آية الحديث المسلسل: ص٣.

ويسافر الأمير فيصل إلى مؤتمر السلم في باريس ليحصل على الاعتراف من الدول الكبرى باستقلال سورية بحدودها الطبيعية.

ويُفتتح المؤتمر في (١٨) كانون الثاني سنة (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) ويواجه فيصل هناك الادعاءات الفرنسية في سورية، ويشعر أن حليفته بريطانيا ليست مستعدة للنزاع مع فرنسة من أجل مناصرته[١].

ويفشل الأمير فيصل في انتزاع اعتراف الدول الكبرى بالاستقلال، لأن المطامع الفرنسية وادعاءات بريطانيا لا يمكن أن تلتقيا إلا على اقتسام البلاد العربية[٢].

ومع ذلك لم يبح الأمير فيصل بخيبة أمله إلا لنفر يسير من أعوانه. أما في أحاديثه القليلة بعد عودته إلى دمشق، فكان يؤكد فيها على حسن نيات الحكومات الأربعة: بريطانيا وفرنسة والولايات المتحدة وإيطاليا، وصدقهم في أقوالهم، وتمسكهم بالمبادئ التي جعلوها دستوراً لأعمالهم، ولم يتحدث قط عن أطماع أوربة، بل كان يقول: لا يمكن أن أفرق بين الواحدة والأخرى في حسن النية.. إن أوربة اعترفت بنزاهة أمانيكم، وأزمعت على منح سورية الاستقلال الذي تصبو إليه[٣].

❁ ❁ ❁

ويعود فيصل إلى دمشق، وتزيَّنُ لقدومه مستبشرة بالاستقلال، وفي حديقة الأمة (المنشية) يقام احتفال كبير لاستقباله والترحيب به، وذلك يوم السبت (٣) آذار (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م)[٤].

---

(١) الحكومة العربية في دمشق: ص٨٧، ٨٨، ٩٣، ٩٥، ٩٧.

(٢) الحكومة العربية في دمشق: ص١٠٣.

(٣) الحكومة العربية في دمشق: ص١٠٣.

(٤) ذكرت الدكتورة خيرية قاسمية في كتابها «الحكومة العربية في دمشق» ص١٠٢: أن عودة =

ويقف عبد القادر المبارك في هذا الاحتفال، ليلقي قصيدة طويلة[١] يعبر فيها عن روح النقمة على الأتراك الاتحاديين، والآمال المعلقة على الحسين وثورته العربية وأبنائه الميامين[٢]. ويفتتحها بقوله:

أجِلِّقُ ما هذا البها والتَّجَمُّلُ فقد أدهش النُّظَّارَ فيكِ التأَمُّلُ

ثم يقول مرحباً بعودة الأمير فيصل، واستقبال الشعب له:

إلى الوطن المحبوب عاد مجيره فخفَّ إلى استقباله الشَّعْبُ يَحْفِلُ
وراحَ يُحيِّي منقذَ الوطنِ الذي يَحُفُّ به من أَعْيُنِ الله جَحْفَلُ
وأهلاً بمَنْ ما زال يسعى لشعبه لِيُبْلِغَهُ ما يَرْتَجي ويُؤَمِّلُ

وما يرتجيه هذا الشعب هو الاستقلال:

درى أن الاستقلالَ إن يحيا طابت الـ ـحياةُ وإن لم يَحْيَ فالموتُ أَفْضَلُ
فنادى به في الغَرْبِ بالسِّلْم والحِجا وفي الشَّرْقِ بالصَّمْصام يقضي ويَعْدِلُ
ولبَّاهُ صوتُ الشَّعْبِ يهتفُ فليعشْ لنا مُلْكُ الاستقلالِ وليَحْيَ فيصلُ

ويخفق قلب عبد القادر بالحب للوطن، ويستبشر بأن الاستقلال سيعيد إليه تاريخه المجيد:

أيا وطناً في قَلْبنا لكَ منزلٌ نقيكَ الرَّدى إن غَصَّ بالجيشِ مَأْزِلُ
لماضيكَ في تاريخه مَدَنِيَّةٌ يَلَذُّ بمعناها البديع التَّغَزُّلُ
وإنَّا لنرجو أن يعودَ الذي مضى إليكَ فمن شَأْنِ الزَّمانِ التحوُّلُ

= الأمير فيصل إلى دمشق من مؤتمر السلم في أيار (١٩١٩م)، والصواب ما هو مثبت في آخر القصيدة التي نظمها الشيخ عبد القادر المبارك بهذه المناسبة، فقد جاء فيها: تذكار يوم قدومه إلى دمشق السبت في (٣) شعبان سنة (١٣٣٧هـ) (٣) مايس (آذار) سنة (١٩١٩م).

(١) سماها «آية الحديث المسلسل في الترحاب بسمو الأمير فيصل»، وقد أثبتها في آخر هذا الكتاب.

(٢) ترجمة الشيخ عبد القادر المبارك لهاني المبارك.

ثم يتحدث عما عانته دمشق في زمن الاتحاديين من استبداد وظلم، وها هو فيصل قد نهض ليزيل ظلمهم واستبدادهم:

أَلَمْ تَرَ كَمْ صَدَّ الخطوب مُنَوِّهاً بعزِّكَ في شِبْهِ الجزيرةِ فيصلُ
رأى في مغانيك الجمالَ منكَّراً يغادرُ دمع الشَّعْب كالسَّيْلِ يهملُ
رأى يد الاستبدادِ تعبثُ قسوةً بقومٍ للاستقلالِ فيهم تأهُّلُ
فأشفقَ أن تفنى أزاهيرُك التي بكى روضَها الباكون إذ كاد يُمْحِلُ
ولم ينسَ في هذي المدينةِ وقعةً إلى الله منها المُشْتكى والمعوَّلُ
هنالك هاجَتْ بابن مكَّة نخوةٌ أهاجتْ أخا ليثِ الشَّرى وهو مُشْبِلُ
فقال لرهطٍ أغضبوا الله والورى ألا أيها الرَّهْطُ اللئامُ ألا انْجَلُوا

وها هي الثورة قد انتصرت:

وقد فازَ جيشٌ فيه من آلِ هاشمٍ عليٌّ وعبدُ الله زَيْدٌ وفيصلُ

وها قد عاد فيصل من مؤتمر السِّلْم، يزف لنا بشارة الاستقلال:

فآبَ قريرَ العينِ في الشَّرْقِ ظافراً يؤُمُّ حمى الغَرْبِ الأميرُ المُبَجَّلُ
ولاقى رعاه الله كلَّ حفاوةٍ تليقُ بأمثالِ الأميرِ وتَجْمُلُ
بمؤتمرٍ لم يشهد الخَلْقُ مِثْلَهُ ترى الدَّهْرَ فيه مُصْغياً يتأَمَّلُ
ترى فيه أقطابَ الشُّعُوبِ تجمَّعُوا ليحملَ كلٌّ منه ما يتحمَّلُ
ومنه لنا أهدى الأميرُ بشارةً سيبقى لها ذِكْرٌ أغرُّ مُحَجَّلُ
فيا عربيُّ اهنأْ وعِشْ متفيئاً براية الاستقلال وليَحْيَ فيصل

❁ ❁ ❁

غير أنَّ العربيَّ ما زال بعيداً عن راية الاستقلال يتفيأ ظلها، فقد صحت دمشق في (١٤) تموز (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) على إنذار غورو المشهور، ثم تحرك جيشه نحو ميسلون في (٢٤) تموز، ليتصدى له بقايا جيشها المقاوم، وليسقط شهيداً وزير حربيتها يوسف العظمة[١].

ويدخل الفرنسيون دمشق في (٢٥) تموز[٢]، وتستقبلهم العيون الباكية على موت حلم عاش نحو سنتين، كانتا مفعمتين بالطموح والعمل.



(١) الحكومة العربية في دمشق: ص١٩٨، ٢٠٧.

(٢) المصدر السالف: ص٢٠٨.

في المجمع العلمي العربي

من تلك الأعمال الطموحة التي تحققت في عهد الحكومة العربية القصير إنشاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وكان عبد القادر المبارك من أعضائه المؤسسين[1].

فقد أعلن الأمير فيصل تأسيس حكومة عربية في الخامس من تشرين الأول سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م)، ودواوين الحكومة والجيش والمدارس كلها تركية اللغة[2]، وكان من أولى واجباتها إحلال اللغة العربية محل التركية في مؤسسات الدولة ودواوينها ومدارسها وجيشها بإيعازاته وألقابه وأسماء أسلحته[3].

وتنفيذاً لذلك ألف الحاكم العسكري علي رضا الركابي في (٢٨) تشرين الثاني (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) أي في الشهر الثاني لجلاء الأتراك شُعَباً إدارية وفنية لإنجاز أعمال الدولة الفتية، فكانت الشعبة الأولى للترجمة والتأليف لتعريب الدواوين ونشر العربية بين الموظفين[4].

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي: مج٢١/ج١-٢/ ص٨٢.

(٢) من حاضر اللغة العربية: ص٥٨.

(٣) مجلة المجمع: مج٨٢/ج١/ص٥٧.

(٤) تاريخ المجمع العلمي العربي: ص٣.

ثم وسعت الحكومة هذه الشعبة في (١٢) شباط (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) وسمتها ديوان المعارف، وأسندت رياستها إلى الأستاذ محمد كردعلي[(١)].

ثم فصلت الشعبة الأولى عن ديوان المعارف في (٨) حزيران (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) واستقلت باسم المجمع العلمي العربي[(٢)]، وأصبح الأستاذ محمد كردعلي رئيساً له[(٣)].

وما بين (٨) حزيران تاريخ إنشاء المجمع، و(٣٠) تموز، تاريخ أول جلسة للمجمع في العادلية عمل محمد كردعلي على ترميم بناء المدرسة العادلية الكبرى، وجعله مقراً صالحاً للمجمع[(٤)].

وعقد المجمع جلسته الأولى في مبنى العادلية بباب البريد يوم الأربعاء في الثالث من ذي القعدة سنة (١٣٣٧هـ/ و(٣٠) تموز سنة (١٩١٩م).

وفي هذا التاريخ (٣٠/ ٧/ ١٩١٩) صدرت أول دفعة من أسماء أعضاء المجمع مؤلفة من اثني عشر عضواً، هم:

١ـ محمد كردعلي.
٢ـ أنيس سلوم.
٣ـ سليم عنحوري.
٤ـ متري قندلفت.
٥ـ سعيد الكرمي.
٦ـ أمين سويد.
٧ـ رشيد بقدونس.
٨ـ عبد القادر المبارك.
٩ـ عبد القادر المغربي.
١٠ـ عيسى إسكندر المعلوف.
١١ـ مرشد خاطر.
١٢ـ فارس الخوري[(٥)].

---

(١) تاريخ المجمع العلمي العربي: ص٤ـ٥.
(٢) المصدر السالف: ص٧.
(٣) مجمع اللغة العربية، تعريف تاريخي: ص٧.
(٤) مجمع اللغة العربية، تعريف تاريخي: ص٨.
(٥) المصدر السالف، وقد فصل فيه د. مازن المبارك أحسن تفصيل أعضاء المجمع المؤسسين، وبين أوهام من سبقه إلى ذلك.

لقد كان علم عبد القادر المبارك في اللغة العربية سبيله إلى المجمع العلمي العربي، فقد عرف عنه شغفه بدراستها منذ حداثته، واشتهر باطلاعه الواسع عليها، وتفوقه فيها، وكانت معرفته بها معرفة تحقيق وتدقيق، تمكنه من أن يستدرك على كتب اللغة والمؤلفين وأصحاب المعاجم، فكان حجة في هذا الباب، فلا تكاد تسأله عن لفظة حتى يذكر لك معناها، وما ورد فيها من الشواهد من كلام العرب، وما يدور حولها وبمناسبتها من النوادر الأخرى[١].

ولم تقتصر معرفته باللغة على ألفاظها فحسب، بل كان من أعلم الناس بفقه اللغة، ومن أحفظهم لشواهدها وشواردها[٢]، فكان بحق كما وصفه الشيخ محمد الخضر الحسين: أعلم العرب بلغة العرب[٣].

وكانت أغراض المجمع تتمثل في تلك المرحلة بـ:

١ـ تدبر أمور اللغة العربية.

٢ـ نشر آداب اللغة وإحياء التراث.

٣ـ ترجمة كتب العلوم والصناعات عن اللغات الأجنبية.

٤ـ تأليف ما تحتاج إليه البلاد من كتب بأساليب عصرية.

٥ـ طبع الكتب والوسائل اللغوية والعلمية.

٦ـ جمع المخطوطات والآثار من تماثيل وأدوات وأوان ونقود ونقوش.

٧ـ التدقيق في الكتب المدرسية.

٨ـ وضع المصطلحات وتعريب لغة الدواوين.

٩ـ إصدار مجلة لنشر أفكار المجمع، لتكون صلة بينه وبين العالم.

١٠ـ إلقاء المحاضرات[٤].

---

(١) مجلة المجمع: مج٢٦/ج١/ ٤٥٩.

(٢) مجلة المجمع: مج٢٦/ج١/ ٤٦٠.

(٣) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

(٤) مجمع اللغة العربية، تعريف تاريخي: ص١٣.

وهكذا نصَّب المجمع نفسه قيماً على اللغة العربية في المجالين الرسمي والشعبي، وكان من ورائه مسؤولون حكوميون يشجعون وينفذون، كما كان من حوله مواطنون وأعوان، سرعان ما كانوا يستجيبون لما يدعوهم إليه(١).

وإن من يطلع على ما جرى من مراسلات بين المجمع وبين القائمين على الدواوين والإدارات المدنية والعسكرية ليدرك كيف كانت رغبتهم في امتلاك اللغة العربية ألفاظاً وأساليب؛ ليحلُّوها محل اللغة القديمة الممتلئة بالعجمة والركاكة، ويرى كيف كانوا يتجهون إلى المجمع الجديد لينقذهم وينقذ ألسنتهم وأقلامهم(٢).

وكان أعضاء المجمع وأعضاء اللجان، ومن يدعوهم المجمع لمساعدته من أعلام العربية في بلاد الشام يستخرجون مئات الألفاظ من كتب التراث، وينظرون فيما كان العرب يستعملونه(٣).

وكثرت الأعمال لدى المجمعيين وتنوعت ما بين تأليف وتحقيق تراث، وترجمة ألفاظ وتعريب كلمات ووضع مصطلحات، ومراقبة لغة الكُتَّاب والصحفيين، بل التدقيق في الكتب المدرسية، ومراجعتها، وتقويم أساليبها(٤).

وفي تلك الأعمال كلها كان لعبد القادر المبارك أثر جليل، فقد اشترك في كثير من لجان التصحيح والتعريب(٥).

وبجهوده وجهود العلماء أمثاله لم تمضِ إلا فترة قصيرة حتى كانت اللغة التركية في الشام تاريخاً من التاريخ القديم(٦).



(١) مجلة المجمع: مج٨٢/ج١/ص٥٩.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف: ص٦٠-٦١.

(٤) المصدر السالف: ص٦١.

(٥) مجلة المجمع: مج٢٦/ج١/٤٥٩.

(٦) من حاضر اللغة العربية: ص٦.

وإضافة إلى أعماله في المجمع فقد اختير عبد القادر في لجنة تعريب المصطلحات العسكرية التي ألفت برياسة ياسين الهاشمي، وتضم في عضويتها رشيد بقدونس، ومراد الاختيار[١].

وهي لجنة أنيط بها تعريب المصطلحات العسكرية، وكانت تسمى كذلك لجنة التعريب والتهذيب، وأما التهذيب فلأنها كانت تقوم مع التعريب ووضع المصطلحات بالتدقيق في لغة الكتب المترجمة وتهذيبها، كما جاء على غلاف كتاب «تعليم المشاة» الذي عربه رشيد بقدونس، وهذبه عبد القادر المبارك، ونخلة زريق، ورشيد بقدونس[٢].

وكانت هذه اللجنة من أطول اللجان عمراً، وأكثرها أثراً[٣]، فقد امتد عملها سنين طويلة، حتى إن الدكتور مازن المبارك وصف لنا إحدى جلسات هذه اللجنة في نحو سنة (١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م)، وقد حضرها وهو صغير بصحبة والده الشيخ عبد القادر، فقال: «كان الاجتماع في إحدى غرف المجمع، وكان في الغرفة مكتب كبير (منضدة) جلس حولها خمسة رجال، أحدهم عند رأس المكتب، وهو الأستاذ رشيد بقدونس، بشعره الأشقر الضارب إلى الحمرة، وعلى أحد جانبي المكتب جلس رجل لم أعرفه ـ أظنه الأستاذ الاختيار لأنني قد قرأت اسمه فيما بعد بين أعضاء اللجنة ـ وإلى جانبه والدي الشيخ عبد القادر المبارك، وقد جلست بعده مبتعداً عن المكتب نحو متر أو أكثر، وجلس على الجانب الآخر رجلان بثياب عسكرية، وكان أحدهما أعلى رتبة من الآخر، لأنه كان يأمره بإخراج قطعة من السلاح من محفظة كبيرة، ويضعها أمام اللجنة على

---

(١) مجلة المجمع: مج٨٢/ ج٢/ ص٢١٩.

(٢) طبع الكتاب سنة (١٩١٩م) في المطبعة الحربية على ورق أحمر، ويضم عشر صفحات ومئتين من القطع الصغير.

(٣) مجلة المجمع: مج٨٢/ ج٢/ ص٢٢٠.

المكتب، ويفك أجزاءها، ويحملها أمامهم قطعة قطعة، وكان كلما حمل قطعة ذكر صاحب الرتبة اسمها باللغة التركية، وكان الأستاذ بقدونس يرددها بالتركية، وأحياناً بالفرنسية، وكان أعضاء اللجنة كلهم يتقنون التركية، ثم يسألون عن عمل تلك القطعة أو وظيفة ذلك الجزء من السلاح، فيشرح الخبير العسكري عملها، ويبدأ بعد ذلك اقتراح الأعضاء للأسماء، فإذا اتفقوا سجلوا على القائمة اسماً أو أكثر، وقد يؤجلون البت في التسمية إلى الجلسة القادمة»[١].

وإن مئات الكلمات العربية التي نستعملها اليوم في حياتنا العامة وفي الجيوش العربية هي من صنع تلك اللجنة، واللجان الأخرى ومن أعانها وشاركها، ولا شك أن لجنة تعريب المصطلحات العسكرية ـ أو مصطلحات القوات المسلحة ـ العربية السورية هي أول لجنة عرفها الوطن العربي، وبفضلها عمَّ استعمال المصطلحات العربية في الجيوش العربية[٢].



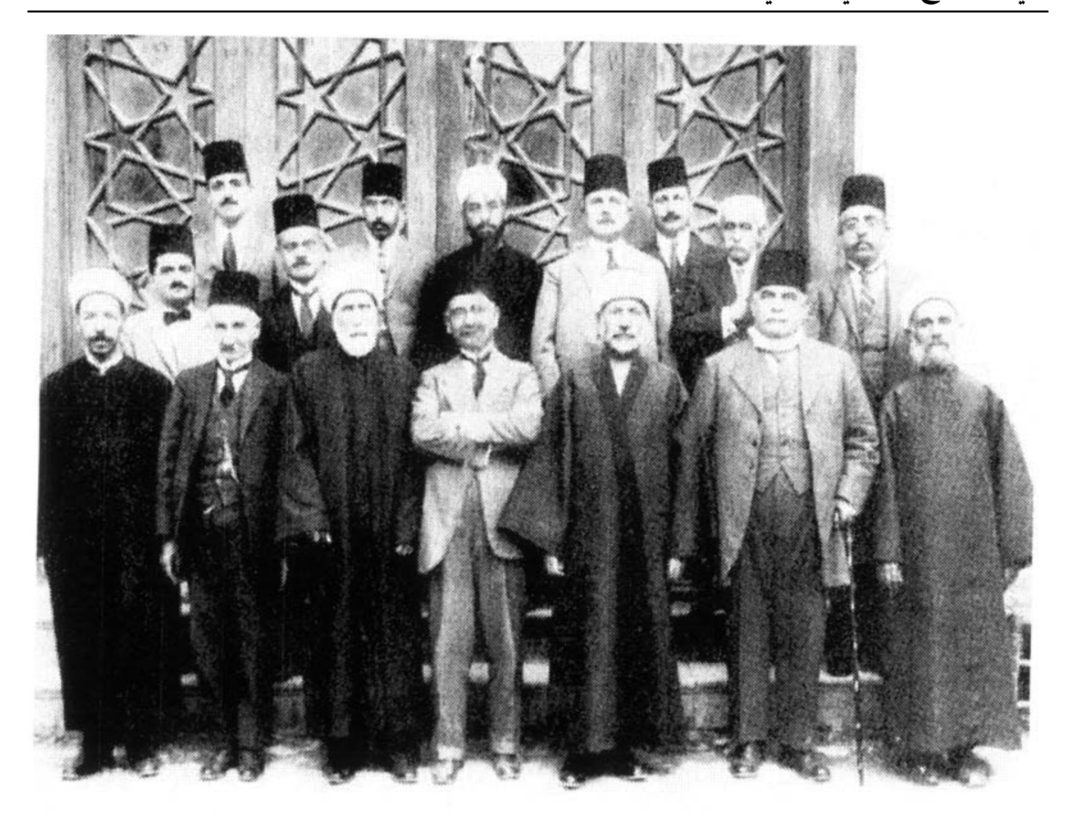
وتنعم الأمة العربية بلغتها، ناسية جهد علمائها في تعريبها، وتمر إحدى هذه الكلمات المعربة في درس من دروس الشيخ عبد القادر في مكتب عنبر، ويرى الطلاب وقد مروا عليها دون أن يتنبهوا لها، ويعود الشيخ عبد القادر بذاكرته إلى تلك السنين الحافلة بالنشاط والعمل في سبيل اللغة العربية، وإعادة إحيائها، ثم يلتفت إلى طلابه قائلاً لهم بصوت يعتصره الألم: إن هذه الكلمة كلفت مئة ليرة يوم كانت مئة الليرة راتب وكيل وزارة[٣].

---

(١) مجلة المجمع: مج٨٢/ ج٢/ ص٢٢٠ـ٢٢١.

(٢) المصدر السالف: ص٢٢٦.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي: ٥/ ٢٦٧.



صورة تذكارية في ردهة المجمع العلمي

من اليسار إلى اليمين، (الصف الأول):

١ - عبد القادر المبارك ٢ - سليم عنحوري

٣ - سليمان الجوخدار ٤ - محمد كرد علي

٥ - عبد القادر المغربي ٦ - أنيس سلوم

٧ - مسعود الكواكبي

من اليسار إلى اليمين (الصف الثاني):

١ - مرشد خاطر ٢ - عارف النكدي

٣ - عبد الله رعد ٤ - محمد سليم الجندي

٥ - محمد بهجة البيطار ٦ - فارس الخوري

٧ - أسعد الحكيم ٨ - الياس قدسي

٩ - عيسى إسكندر معلوف

في ذكرى المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري

وفي وسط الصورة شكري القوتلي، رئيس الجمهورية، وعن يمينه فارس الخوري، وطه حسين وعبد القادر المبارك، ومهدي البصير، وعن يساره إسعاف النشاشيبي، محمد كردعلي، وعارف النكدي، وخليل مردم بك



أمام المدخل الرئيسي للجامعة السورية، حيث عقد المهرجان

ويبدو عن يسار الصورة عبد القادر المبارك، وفي الوسط طه حسين وعن يساره أحمد أمين.

تساؤلات عن النهضة وأسبابها

ويمر على احتلال فرنسة لسورية نحو أربع سنوات، ويرى عبد القادر أن الأمة تنتقل من إخفاق إلى إخفاق، فما إن يلوح ضياء الأمل حتى تعقبه على الفور ظلمة اليأس والفشل، لقد استبشرت الأمة حقاً بإعلان الدستور في أواخر عهد السلطان عبد الحميد، فجاءها بعده ظلم الاتحاديين واستبدادهم، وأملت الأمة أن تعيش باستقلال تحت ظل حكومة عربية، وها هي الآن ترزح تحت الاحتلال.

ويقف عبد القادر أمام مرآة الحقيقة، وجهاً لوجه يتأمل حالنا بتجربة رجل في الثامنة والأربعين من عمره، فيرى أن الغرب يزداد قوة وارتفاعاً، ونحن في ضعف وانحدار، ويتساءل بألم وحسرة: لماذا نهاب هذا الغرب؟ ولماذا ساد علينا سيادة قاهر؟ لماذا أدرك العلياء؟ ولماذا أصبح هذا التباين بيننا وبينه؟

لِمَ يا مَهيْبَ الجَدِّ هِيْبَ الرَّاقي | ألحُسْنِ منظرِ ثَوْبِهِ البَرَّاقِ
لِمَ سادَكَ الرَّاقي سيادةَ قاهرٍ | طَبٌّ بما تُلْفيه غيرَ مُطَاقِ
لِمَ أدرك العلياءَ ذاك وضَلَّ ذا | نَهْجَ الجدودِ فَحَلَّ في الأعماقِ
لم أصبحا مُتَبايِنَيْنِ تبايناً | أنساكَ ما لهما من الأَعْراقِ

وتدور في رأس عبد القادر تساؤلات كثيرة، وهو يرصد هذا التباين بيننا وبين

الغرب، فالغرب يعيش في ثراء، وينال كل ما يشتهيه ويتمنى، ونحن نعيش في فقر وإملاق، فكيف وصل إلى ما وصل إليه من قوة ومنعة؟

ويجد عبد القادر الجواب في سنة الله في خلقه، فكل الكائنات تحيا وفق هذه السنن الإلهية التي لا تتخلف، وإذا نظرنا إلى أحوالنا وأحواله على ضوء هذه السنن نجد أن الغربي قد انصرف بهمته إلى درس العلوم، وبذل في سبيل العلم الغالي والرخيص، فهذا السعي الدؤوب لنيله وتحصيله لا بد أن يفضي إلى النجاح، أما نحن فقد رضينا بالكسل والقعود، فكانت النتيجة أن تخلفنا، فالسنن الإلهية لا تسمح أن يتقدم الكسول، ويتخلف صاحب الهمة العالية.

وهذا الجد في الدرس والعلم ورَّثه الغربي إلى أبنائه، أما أبناؤنا فقد ورثناهم نحن الكسل والصخب.

ثم إن الغربي ابتغى من علمه ثمرته، وهي اختراعاته وتطبيقاتها على واقع الحياة، أما علمنا فقد غلب عليه العلم النظري الذي لا يتعدى الحبر والقلم والأوراق.

والغربي ابتنى الجامعات ودور العلم، أما نحن فقد هدمنا ما كان لنا منها.

ومن ثَمَّ وجد كل منا نتيجة سعيه وعمله، فلا يرتفع الإنسان نحو المعالي والمجد هكذا دون أسباب تقتضيها، فالقرآن الكريم علمنا ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1]، والله جلَّ جلاله هو الذي أنزل القرآن، وهو الذي وضع هذه السنن، وقضى بها على خلقه، وقد جَلَّ ـ سبحانه وتعالى ـ عن ظلمنا، أو أن يكلفنا ما لا نطيق.

فنحن مرهونون لما نسعى إليه، فلا يحتجَّ أحد بالقضاء والقدر، ويقول: إن هذا التخلف قد كُتب علينا، فالطريق الصحيح للرقي أن نعرف سنة الله في خلقه كي نهتدي بهداها إلى فلاحنا وسعادتنا.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

فالغربيون غلبونا بعلمهم، واتخذوا الأسباب لتحصيل قوَّتهم، وقد كانوا من قبل متخلفين عنا، غير أنهم عملوا بصمت حتى تمكنوا، وصحونا نحن من غفلتنا على تفوقهم.

فالسعادة كل السعادة في العلم، والشقاء كل الشقاء في الجهل. وبالعلم، وليس بالمال يسمو حقاً الإنسان، فالمال لا يعلو بالإنسان الكسلان، ولو كان هذا الإنسان عريق النسب:

فارْبَأْ بنفسك عن غنى كسلان ذي ... جَهْلٍ يُذَلِّلُ أشرفَ الأعناقِ
للجَهْلِ يفتحُ بابَ منزله كما ... يُؤْذي وُجُوهَ العلم بالإغلاقِ

فالعلمَ العلمَ، فهو الحرية والشفاء والغنى:

بالعِلْم عالجْ داءَ شَعْبِكَ يا فتى ... رِفْقاً بأرواحٍ بلَغْنَ تراقي
فَالعِلْمُ رَوْضٌ عَرْفُهُ يَشْفي وفي ... أثمارِهِ أزكى ثراءٍ باقي
حُرِّيةُ العِلْمِ الصَّحيح تقي الفتى ... ما لا يليقُ به من استرقاقِ

هذا هو الطريق لاكتساب القوة، ولا مجد للإنسان إلا بها، أما الضعيف فلا أحد يلتفت إليه ولو كان صاحب حق:

لا مَجْدَ إلا بعدَ إعدادِ القُوى ... عَوْناً على الإبطال والإحقاقِ
والضَّعْفُ لا يدَ مُنْعِشٍ يَلْقَى ولا ... فَمَ سائلٍ عن سائلِ الآماقِ

هذه هي طبيعة الناس، يخضعون للقوي، ولا يرحمون الضعيف:

خَصُّوا القويَّ بِرِفْقِهِمْ واستبدلوا ... مَعَ غيرِهِ الإضرارَ بالإرْفاقِ
فمن استغاثَ بهمْ أُهينَ ولم يُغَثْ ... إلا بغُبَّرِ دمعه المهراقِ
جاروا على الضُّعفاءِ حتى أَحْدَقَتْ ... بهمُ الرَّزايا أيَّما إحداقِ

فلنربِّ أولادنا على نيل أسباب القوة، فهذا العصر هو عصر تنافس وسباق، وما الحياة إلا معركة لا ينتصر فيها إلا القوي:

فلترحَمِ الأمُّ الحنونُ صِغَارَها ... فالعَصْرُ عَصْرُ تنافسٍ وسباقِ

والأرضُ مُذْ شربتْ دمَ المظلوم لم ... تبرحْ مجالَ تنازُعٍ وشقاقِ

صارت معارِكَ بالمطامعِ أُوقدتْ ... فيها مطامعُ شَمَّرَتْ عن ساقِ

وضعافُنا لَحْمٌ على وَضَمٍ فما ... هو ليتَ شِعْري خيرُ حِصْنٍ واقي

وحصننا الواقي بعد نيل أسباب القوة هو الأخلاق:

هو حُسْنُ أخلاقٍ وفَضْلُ صداقةٍ ... لا حُسْنُ أثوابٍ وفَضْلُ صَدَاقِ

من يَرْعَها يَرْعَ الحقوقَ جميعَها ... ويُعَدُّ أوفى النَّاسِ بالميثاقِ

ومن احتمى بحمى عزيزِ لوائها ... فقد استظلَّ بظِلِّ خيرِ رِواقِ

والأخلاق تحمي رجالنا ونساءنا:

تحمي الرِّجالَ إذا بها اعتصموا كما ... تحمي ذواتِ الحَلْي والأطواقِ

وتَصُونُهُنَّ صيانةَ الأزهار في ... أكمامها والدُّرِّ في الأحقاقِ

وبها نحقق سعادتنا:

وهي السَّعادةُ لا سعادةَ دونها ... في حُكْمِ أهل الرَّأي بالإطباق

وهي غذاؤنا المخصب، والويل لوطن لا يرتوي بلبنها:

فليرضعِ الأطفالُ زاكيَ دَرِّها ... يحيوا أُسُوداً لا جنودَ نفاقِ

وإذا حوى الوطنُ الأسودَ وهُمُ همو ... دام العُلا للوائِهِ الخَفَّاقِ

* * *

وحين فرغ عبد القادر من نظم هذه الأفكار في قصيدة، سماها «إحدى العبر بين البشر أو أنشودة الألباب في عالم الأسباب»، ونشرها في سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) عساها أن تكون هادية للأمة في طريق خلاصها[1].



(١) أثبت هذه القصيدة بتمامها في آخر هذا الكتاب.

في مكتب عنبر

وفي مكتب عنبر كان يحاول عبد القادر تحقيق حلمه في إنشاء جيل واعٍ مثقف، عربي اللسان والانتماء.

وقد امتد تدريسه فيه في مراحله كلها، ابتداءً من سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) إلى العام الدراسي (١٣٥٤ـ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦ـ١٩٣٧م)[١]، حيث بلغ الستين من عمره[٢]، لم ينقطع عنه إلا فترة قصيرة في العهد الفيصلي، حيث أعيد افتتاح المدرسة الحربية في جامع تنكز[٣] في تشرين الأول سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م) لتخريج الضباط الأكفاء[٤]، فعين فيها أستاذاً للغة والدين والتاريخ العربي، ولما

---

(١) في ذلك العام كان مكتب عنبر قد انتقل إلى بنائه الجديد، وسمي بالتجهيز الأولى، ثم سمي فيما بعد باسم ثانوية جودة الهاشمي، وهو أحد أساتذته القدماء الذين تولوا إدارته سنين طويلة، تذكاراً لفضله، رحمه الله. انظر «النور والنار»: ص٣٢، و«مجلة المجمع»: مج٨٤/ ج٢/ ص٥٣٧، أما بناؤه القديم فهو الآن قصر الثقافة.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) النور والنار: ص٢١.

(٤) الحكومة العربية في دمشق: ص٢٥٦ـ٢٥٧.

أغلقت المدرسة بعد الاحتلال الفرنسي في تموز (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) عاد إلى التدريس في مكتب عنبر[1].

❁ ❁ ❁

ولا نعرف الكثير عن مكتب عنبر في عهده التركي[2]، حيث كان التعليم فيه بالتركية[3].

أما في العهد الفيصلي فقد كان أول مؤسسة عربت بعد جلاء الترك عن دمشق سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) حيث زال عنه كل أثر للتركية بفضل أساتذته[4]، وفي طليعتهم عبد الرحمن سلام، ومحمد الداوودي، وعبد القادر المبارك، فقد كان لهم الفضل الأكبر في إذكاء الروح العربية، وبعث التراث العربي في صفوف طلابه[5].

وكان قد وضع في ذلك العهد برنامج تعليمي، طبق سنة (١٣٣٦ـ١٣٣٨هـ/ ١٩١٨ـ١٩٢٠م)، جعل اللغة العربية لغة التعليم الرسمي، فكان له الفضل في إبقاء اللغة العربية لغة التعليم الرسمي في عهد الاحتلال الفرنسي، فصارت اللغة العربية لغة التدريس في جميع المواد فيه، فنجت البلاد مما كان ينتظرها، فلم يستطع الفرنسيون أن يفعلوا في سورية ما فعلوه في الجزائر[6].

وغدا مكتب عنبر في عهد الاحتلال موئل الوطنية، ومصدر الحركات

---

(١) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١ـ٢/ ص٨٢، ومج٢٦/ ج١/ ص٤٦١.

(٢) انظر ما كتب عنه في العهد التركي في كتاب «النور والنار»: ص٢٤ـ٢٨.

(٣) النور والنار: ص٢٥ـ٢٦.

(٤) مكتب عنبر للقاسمي: ص١٠٢.

(٥) النور والنار: ص٢٨.

(٦) النور والنار: ص٢٩، ومكتب عنبر للقاسمي: ص٥٠.

الشعبية، ومبعث النضال[١]، بما كان يبثه فيه أساتذته المخلصون[٢]، ومنهم عبد القادر المبارك الذي عرفه المكتب مدرساً للعلوم الدينية ثم مدرساً للعربية[٣]، فقد وهب نفسه لنفع الطلاب، وذلك بتعريفهم شؤون دينهم ودنياهم، وبتحبيبهم بلغتهم العربية، وكشف أسرار بلاغتها وجمالها.



وقد ترك لنا طلابه النجباء صورة عن درسه وتدريسه في تلك السنين، وهي صورة نابضة بالحب والحياة، حتى إننا لنكاد نرى أدق تفاصيلها عياناً، ومن ثم آثرت ألا أحول بينها وبين القارئ بتلخيص مبتسر، فهاهم يروون بأساليبهم البليغة ما تركه فيهم من أثر، وسأبدأ بأنبغ تلاميذه وطلابه، وأقدمهم وأعرقهم بالأدب وفنونه، الأستاذ علي الطنطاوي، ليصور لنا بأسلوبه الماتع الساحر درس الشيخ عبد القادر:

«كان موعد دخولي المكتب سنة (١٩٢٠م)، ولكني لم أدخله إلا بعد ذلك بسنتين، ما قصرتْ عنه سني، ولا عاقني عنه كسلي، ولكن طال إليه طريقي[٤].

لقد كان أول درس حضرناه في مكتب عنبر للشيخ عبد الرحمن سلام، فاستقبلنا ـ رحمه الله ـ بخطبة رنانة أعلن فيها أنه غدا ذلك اليوم مدرساً للعربية حقاً.

ذلك أن من كان قبلنا من التلاميذ قد درسوا في العهد التركي، فنشؤوا ـ إلا من عصم الله ـ على ضعف بالعربية، ومن كان معنا درسوا في العهد العربي، فكانوا أقوى ملكة، وأقوم لساناً.

---

(١) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص٢٥.

(٢) مكتب عنبر للقاسمي: ص١٠٥.

(٣) مكتب عنبر للقاسمي: ص٤٨.

(٤) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص١٧.

رحمة الله على شيخنا عبد الرحمن سلام[١] . . . وعلى أستاذنا عبد القادر المبارك، الذي كان الإمام في اللغة، والمرجع فيها، قيَّد أوابدها، وجمع شواردها، وحفظ شواهدها، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم، ووعى أخبارهم، وروى أشعارهم، وكان المفرد في بابته، لا أعرف نظيراً له في العلماء، تحسُّ إذ تجالسه وتسمع منه كأن الأصمعي وأبا عبيدة قد تمثَّلا لك في جُبَّته، وكأن ما كنت تقرؤه من أخبار الرواة والحفاظ قد عاد لك حتى رأيته بالعيان[٢].

كنا ندخل الصف في مثل «العراضة»، أصوات عالية متداخلة، وضجيج صاخب مزعج، وكان المدرسون يجدون مشقة في إسكات المتكلمين، وتهدئة الصاخبين، فإذا كان درس الشيخ المبارك رأى التلاميذ الباب قد انفرج مصراعاه، وبدا من بينهما جبين عريض، ومن فوقه خط أبيض، ثم ظهر وجه الشيخ وعمامته، وجلجل صوته ـ الذي كان يُعرف من بين أصوات البشر جميعاً بضخامته وجهارته ـ بصدر بيت من الشعر، فيسكت الطلاب، فيخطو الخطوة الثانية فيكون في الصف، ويتم البيت، ويشرع بالدرس[٣].

وكان يعلمنا الفقه، ماذا قلت: الفقه؟ هذا هو اسم الدرس في عرف المدرسة، أما الدرس في حقيقته فكان فقهاً وتفسيراً وحديثاً ولغة وشعراً وأخباراً، وما شئت من كل نافع مفيد، وكل طريف جديد[٤]، وما يقال في الدرس عادة وما لا يقال[٥].

---

(١) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص١٧.

(٢) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص١٨، وذكريات الطنطاوي: ١/ ١١٨.

(٣) المصدران السالفان.

(٤) من حديث النفس للطنطاوي: ص١٣٩.

(٥) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص٢٢.

بل كان فيه مع الفقه قواعد من الأصول يسوقها بعبارات موجزة محكمة بليغة، يلقيها ويرددها، ويكتبها بالخط الثلث على اللوح بعرض الحوارة، وكان يتخذ ضوابط يجمع فيها أحكام الفقه، ومفردات الغريب، نحفظها فلا ننساها[١]، هي جملة موجزة تجمع الأحكام، وتسهل على اللسان، ولا تذهب من الأذهان[٢].

وكان يقرئنا «مراقي الفلاح» أولاً[٣]، وتستعجبون إن علمتم أن كتاب «مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح» كان مقرراً تدريسه والامتحان فيه لتلاميذ الصف السابع، أي السنة الأولى من المدرسة المتوسطة، وهو كتاب مغلق الأسلوب، صعب الفهم، كثير التعريفات والاستطرادات، وربما يعسر فهمه اليوم على بعض المدرسين[٤].

وبعد ذلك بسنتين ـ أي في سنة شهادة الكفاية التي يسميها الناس الكفاءة ـ كان مقرراً علينا كتاب «الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية» لقدري باشا، الوزير المصري، الفقيه المتمكن، وهو كتاب جامع لأحكام الأحوال الشخصية في المذهب الحنفي، ويأخذ بأصح الأقوال في المذهب، ولا يستطيع كل من تفقه أن يختار الأصح عند تعدد الأقوال، ولا كان ذلك بالأمر السهل[٥].

فكان أستاذنا عبد القادر يشرحه شرحاً عجيباً، يجعل لكل حكم من أحكام الزواج والطلاق قصة يؤلفها كما يؤلف الأديب قصصه، ويجعل لها قواعد تحفظ فلا تنسى، مثالها: «لا يخلو زواج من عُقْر أو عَقَر» أي لا بد من مهر في النكاح، أو حدٍّ في السِّفاح[٦].

---

(١) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص١٩.

(٢) ذكريات الطنطاوي: ١/ ١١٩.

(٣) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص١٨.

(٤) ذكريات الطنطاوي: ٧/ ١١١.

(٥) المصدر السالف.

(٦) ذكريات الطنطاوي: ١/ ١١٩.

ثم درَّسنا السيرة النبوية، فجاء بشيء ما رأيت ولا سمعت بمثله، يصور الوقائع، ويصف أمكنتها، ويشرح ما قيل فيها، ويدل على مراجعها، فكأننا كنا فيها، وكنت أستوعبها استيعاب التربة العطشى ماء المطر[١].

وكان يدلنا على الكتاب، فأُسرع إلى قراءته، ولقد سمى لنا كتاب «الروض الأُنُف» للسُّهيلي، فشريته عند خروجي من المدرسة، وما بتُّ حتى تصفحته، وقرأت صفحات كثيرة منه[٢].

وما عرفت بين أساتذتي في الدراسة، وبين زملائي في التدريس أقدر منه على الشرح والإيضاح، يرفع صوته ويخفضه، ويبدل لهجته وإيقاعه، ويشير بيديه، ويمثل بوجهه، ويكتب بالخط الثلث على اللوح الأسود، ويضرب الأمثال، فلا تخرج من الفصل، ولا تمر الساعة حتى تُنقش المعلومات على ظهور قلوبنا نقش الإزميل الحاد على الصخر، فلا تمحى أبداً[٣].

فما حضرت ـ على كثرة ما حضرتُ من الدروس ـ درساً أكثر منه حياة، وأبقى في نفس سامعه أثراً، إن نغمته لا تزال إلى اليوم في أذني، وكلماته لا تزال في قلبي[٤].

وما رأيت، وما أظن أنني سأرى مدرساً له مثل أسلوبه في الشرح والبيان، وفي امتلاك قلوب الطلاب، وفي نقش الحقائق في صفحات نفوسهم بهذه الضوابط المحكمة العجيبة التي تلخص في جملة واحدة بحثاً من البحوث[٥].

(١) ذكريات الطنطاوي: ١/ ١١٩.

(٢) ذكريات الطنطاوي: ١/ ١١٩ـ١٢٠.

(٣) ذكريات الطنطاوي: ٧/ ١١١.

(٤) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص١٨.

(٥) من حديث النفس للطنطاوي: ص١٣٩.

وما قعد المبارك على الكرسي قطّ[١].

ولطالما دلنا على كتب قرأتها، وانتفعت بها، فكانت هي رأس مالي في العلم والأدب، ولولاه ما سمعت بها[٢].

أما حفظه فقد صدقت منه ما يُروى عن حماد الراوية، وابن الأنباري والمعري[٣].

وكان شيخنا المبارك له صوت لو جمعتَ عشرة أصوات من أقواها وأشدها، وحزمتها، وجعلتها صوتاً واحداً، لكانت دون صوت الشيخ[٤].

ولقد كان يعاب على درسه أنه فوضى، ومتى كانت الفوضى غريبة على أدبنا؟ هذه كتب الأدب العربي، هل فيها إلا الفوضى؟ والانتقال من قصة إلى مثل إلى تفسير آية، إلى حكمة لأفلاطون، إلى أبيات من أشعار عقلاء المجانين، إلى حكاية لا تخلو من اللفظ الفاحش والمعنى البذيء؟ هذه كتبنا الأدبية، فلم لا تكون دروس أدبائنا مثلها؟»[٥].

❁ ❁ ❁

وهذه صورة أخرى يرسمها له تلميذه الأستاذ ظافر القاسمي:

«عرفته ـ رحمه الله ـ أستاذاً للدين، ثم أستاذاً للعربية، كان قليل شعر الوجه، فصيح اللهجة، قوي النبرة، دائم النشاط، يكتب ويقرأ بدون تنقيط... وكانت دروس الدين تفيض بالفوائد اللغوية الفريدة التي تنهال على لسان هذا الإمام من حيث يريد ولا يريد، فكم حفظنا منه، وأخذنا عنه.

(١) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص٢٢، وذكريات الطنطاوي: ١/ ١٥٥.

(٢) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص١٩، وذكريات الطنطاوي: ١/ ١١٩.

(٣) ذكريات الطنطاوي: ١/ ١٢٠.

(٤) ذكريات الطنطاوي: ٤/ ٦٩.

(٥) مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص١٩.

وكان يعلو أحياناً إلى أرفع طبقات البلاغة، ويهبط حيناً إلى العامية الدمشقية في سبيل الإيضاح لضعف الطلاب.

ولم تكن دروس السيرة النبوية إلا مجموعة نادرة من روائع النثر والنظم.

ولما عُهد إليه في تدريس اللغة العربية تكشفت للطلاب مزاياه، وكان أعلم أهل زمانه بالمفردات، وقد شاع ذلك عنه، حتى قال عنه خصومه: إنه نسخة حية من «القاموس». وأشهد أنني كنت أختار ألفاظاً غريبة، فأسأله عنها، فيجيبني ـ رحمه الله ـ بنص عبارة «القاموس»، أو «فقه اللغة» للثعالبي، فقد عُرف عنه أنه كان يحفظ «فقه اللغة»، و«الألفاظ الكتابية»، و«القاموس المحيط» عن ظهر قلب.

وكان على علمه وحفظه دائمَ الاستعانة بالقاموس، يستصحبه غالباً في درس القراءة، ليتثبَّت مما يمكن أن يشتبه فيه، كان كتاب القراءة في تلك الأيام «زهر الآداب» للحصري، وهو الكتاب الذي حوى روائع من الأدب الجاهلي والإسلامي، والأموي، والعباسي، لا ككتب القراءة التي نراها في هذا الزمان[١].

وأشهد أنه دخل الصف مرة، فطلب إلى أحد الطلاب القراءة، فقرأ، وإذا بالشيخ ـ رحمه الله ـ يتوقف عن الإيضاح والشرح، ويعلن دون حرج: سامحوني، فأنا لم أحضِّر درسي في هذا اليوم، عليَّ بالقاموس!

هذا خلق العالم الحقيقي، إنه لم يجد أي حرج في أن يعلن لطلابه أنه لا يستطيع أن يكون الأستاذ الذي عرفوه، لأنه لم يقرأ النصوص قبل الدرس.

وأذكر أنه تلا ذات يوم بيتاً من الشعر أنسيته، وفيه فعل، فَلَفَظَهُ بالبناء للمعلوم، وحقه أن يكون بالبناء للمجهول، فنبهته إليه، وإذا بالشيخ ـ رحمه الله ـ

---

(١) مكتب عنبر للقاسمي: ص٤٨.

يهتز طرباً، ويقول للطلاب، وهو من هو: أنا أستاذكم جميعاً، وظافر أستاذي في هذه. ولعمري إن هذا التشجيع من إمام عظيم لفتى لم يتجاوز الخامسة عشرة قد دعاني للاندفاع كالسيل المنهمر في إرضاء الشيخ، والتفوق في درسه[١].

وكان له غرام بالمترادف، يقصف به لسانه كالرعد، دون توقف ولا تلعثم، فإذا ما اعترضته لفظة غريبة رأى وجوب شرحها للطلاب، شرحها أحياناً بما هو أغرب منها، وأعقبها بلفظ واضح.

وكانت له ميزة حفظ قصص العرب، يرويها للطلاب، وكأنه يقرأ من كتاب، كأنه حفظ نصوصها كما وردت في كتب الأمهات[٢].

كذلك كان ـ رحمه الله ـ مولعاً بأمثال العرب، يشرحها للطلاب بأسلوب جذاب، فيروي أصلها، ويحكي حكايتها، وقد لا يتحرج حيناً من ذكر لفظ لم يؤْلَف ذكره في المدارس، فيرويه كما ورد في الكتب، وقد يشير أحياناً ولا يفصح، ما زلت أذكر كيف شرح لنا أصل المثل المشهور «أشغل من ذات النِّحْيَيْنِ»، فكان مثلاً رائعاً في الذوق، لم تصدر عنه كلمة نابية، ولا لفظ غير لائق، واستطاع مع ذلك أن يوضح معنى المثل إيضاحاً كاملاً[٣].

أخذ عليه خصومه أنه كان عالماً، ولم يكن أستاذاً، وأن طريقته في التعليم لا تقرها أصول التدريس الحديثة، لقد نسي هؤلاء أنه أستاذ لغة سماعية، وأن ما يمكن أن يستفيده المرء بالسماع كثيراً ما يكون أبقى وأقوى أثراً من المطالعة والحفظ. . . وإني أجزم أن أثر شيخنا ـ رحمه الله ـ في ما تحدث به إلى الطلاب كان أثراً قوياً عميقاً[٤].

---

(١) مكتب عنبر للقاسمي: ص٤٨ـ٤٩.

(٢) المصدر السالف: ص٤٩.

(٣) المصدر السالف.

(٤) المصدر السالف: ص٥٠.

وأخذ عليه الناس جميعاً أنه لم يترك أثراً يدل على سعة علمه، وغزير اطلاعه، ومدهش حفظه.

وإذا كان هذا صحيحاً، فإن الصحيح أيضاً أنه قد ترك أجيالاً متعاقبة، أخذت عنه صحيح اللغة، فقوَّم ألسنتها، وبثَّ فيها حب الفصحى، فلقد كان يصرُّ على طلابه، حتى في دروس الدين، أن لا يتحدثوا، وأن لا يرددوا دروسهم إلا بها، ولكم كان يطرب ـ رحمه الله ـ حينما يقف أحد طلابه، ويتكلم بالفصحى، وكم سمعنا منه كلمات التشجيع في هذا المعنى.

ولكم وقَّفه الطلاب بعد درسٍ استغرق ساعة كاملة من الجهد المضني، ليسألوه، فلا يتبرم بأحد منهم، بل يقضي معهم «الفرصة» التي أعدت لراحته، وكأنه في درس جديد[1]».



وصورة ثالثة يرسمها له تلميذه الأستاذ مطيع المرابط:

«ما فتئت أتخيل بوضوح الأستاذ الجليل المبارك داخلاً الصف في طلعته المهيبة، والحكك[2] في يده المرفوعة المهيئة سلفاً للكتابة، وقبل أن نجلس في مقاعدنا، بعد أن وقفنا احتراماً له، يكون قد وصل إلى السبورة، وأخذ يكتب بخط ثلث جميل جداً ـ وأحياناً بدون نقط ـ حكمة أو حديثاً نبوياً، أو مثلاً عربياً، أو قاعدة فقهية أو لغوية[3].

كان له بالإضافة إلى خطه الجميل صوت فخم جَهْوري، ذو جرس خاص،

(١) مكتب عنبر للقاسمي: ص٥٠.

(٢) الحكك: هو الاسم الذي اختاره الشيخ عبد القادر للحوَّار، وكان الأستاذ علي الطنطاوي يرى أن اسم الحوار عربي فصيح، لأن التحوير هو التبييض، كما أن اللوح عربي فصيح. انظر «مكتب عنبر»: مقدمة الطنطاوي: ص١٩.

(٣) النور والنار: ص٥٥.

يتناغم مع معنى ما يقول، كان دائم الحركة في الصف، ولم نعرف أنه جلس يوماً على كرسي، وأعتقد جازماً أن الأستاذ الوحيد الذي حفظ الطلاب منه، ونقلوا عنه الكثير الكثير من الأقوال والحكم والأحكام الشرعية والقواعد اللغوية، وظلوا يرددونها طيلة حياتهم هو أستاذنا المبارك[١].

لم نر الأستاذ مرة واحدة في غرفة الأساتذة، خلال الفرص ما بين الدروس إلا مستغرقاً في مطالعة أحد الكتب أو المعاجم، منتهزاً كل سانحة للاستزادة والتعمق في المؤلفات القديمة[٢].

درسنا أستاذنا العلامة في كتاب «عدة الأديب» محفوظات لنوابغ الشعراء والبلغاء والحكماء في الجاهلية وما بعدها، وكان معظم المعلقات وغيرها يزخر بالألفاظ العربية القديمة غير المتداولة، فكانت كفاءته التي لا تجارى في اللغة العربية تتجلى في سرعة تفسيره لتلك الكلمات، وفي إعطائه مترادفاتها المتداولة عن ظهر قلب، وكأنه يقرأ ذلك كله في أوسع المعاجم[٣].

كما كان راوية لأخبار العرب وأيامهم وأبطالهم وشعرائهم، لم يرد اسم أحد منهم أو بلدة أو آبدة إلا تدفق بترجمة مفصلة له[٤].

كان يقطن وأسرته في حي العمارة، القريب من مكتب عنبر، كان منزله منتدى يلتقي فيه بعض أترابه من العلماء وشُرَّاب الشاي الأخضر، إذ كان مولعاً بشربه، كما كان مولعاً بالتدخين، وتبدو آثاره واضحة على أصابعه، وقد خصص يوماً في الأسبوع لطلاب العلم يستمعون فيه إلى أحاديثه وشرحه لما غمض

(١) النور والنار: ص٥٥ـ٥٦.
(٢) النور والنار: ص٥٦.
(٣) المصدر السالف: ص٥٧.
(٤) المصدر السالف.

عليهم في نصوص الكتب الفقهية والأدبية، وإلى إجاباته عن تساؤلاتهم بصراحته المعروفة، وأسلوبه الساحر الأخّاذ[١].

كان لأستاذنا طريقته الخاصة في توضيح المعقد من المسائل الفقهية واللغوية، إذ كان يسعى جاهداً بشتى الطرق لتبسيطها وتمثيلها، محاولة منه لإفهامها إلى طلابه، وإلى السائلين عنها[٢].

هذا الأسلوب المنفتح الجذاب المتصل بالحياة الاجتماعية في دروس أستاذنا المبارك الذي يجيب فيه على ما يدور من تساؤلات هنا وهناك، ويرد على دسائس بعض الحاقدين، جعل الطلاب يترقبون درسه بلهفة، ويتلقون أقواله بلذة روحية»[٣].



وممن درس عليه الأستاذ المحامي نجاة قصاب حسن، وقد صوره بالكلمات التالية:

«ولعلي لا أنصف إن لم أتحدث عن واحد ممن أخذت عنهم العربية والفقه، والثقافة الإسلامية المتفتحة، وأعني به أستاذي المرحوم الشيخ عبد القادر المبارك.

كان المبارك مغربياً، معتدل القامة، بعمامة بيضاء، ووجه حليق، وعينين نافذتين، يطل منهما بذكاء ـ تخاف منه ـ على طلبة التجهيز، ويعطينا الدروس وهو يتحرك في الصف حركة مستمرة، وكان له خط جميل، فإذا دخل الصف دخل كهبة الريح، وقبل أن يلتفت إلينا أخذ قطعة الحوار، وكتب على اللوح بعرض الحوارة، وبخط ثلث الكلمة الرئيسية التي عليها مدار البحث، وكان فيما

(١) النور والنار: ص٥٧ـ٥٨.
(٢) المصدر السالف: ص٥٨.
(٣) المصدر السالف: ص٦٠.

قيل لنا قد حفظ المعجم كله عن ظهر قلب، كما حفظ الكثير من «لاروس» الفرنسي، إذ يتقن اللغتين[١].

ولست أنسى أن الشيخ المبارك كانت له إيحاءات تضحك الطلبة، ولكن له هيبة تمنع الضحك، فنظل دائماً نكبت الضحكة، وقد تنفجر غصباً، وكل هذا يجعل الدرس محبباً وشيقاً. . . »[٢].



واختار تلميذه الأستاذ عبد المجيد التجار أن يصور درسه شعراً فقال:

أما «المباركُ» فالتقوى مظلَّتُهُ ... وبالدعاء وبالتسبيح يبتهلُ

ما إن ترى العِمَّةَ البيضاء قد وضعت ... على المنصة حتى تشخص المُقَلُ

إلى «المبارك» يروي سيرة خلدتْ ... ومعجزات بها قد كُرِّم الرُّسلُ

كان المبارك «مُغنينا» و«منجدنا» ... كان «المحيط» يلبي كل من سألوا[٣]

❁ ❁ ❁

(١) لم يكن الشيخ عبد القادر المبارك يتقن إلا التركية، وقد تعلم في آخر عمره الإنكليزية، فأتقنها قراءة لا محادثة، انظر «مجلة المجمع»: مج٢١/ج١-٢/ ص٨٤.

(٢) جيل الشجاعة: ص٢٣٣.

(٣) ذكريات من الماضي: ص٣.

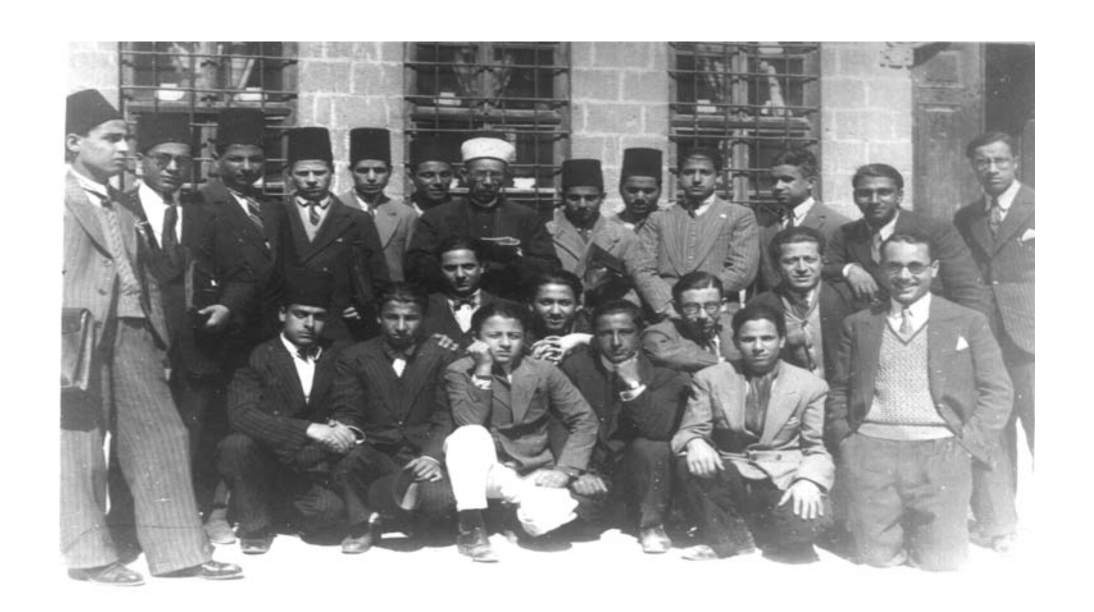


حفلة قسم تخريج الضباط في المدرسة الحربية التنكزية



في مكتب عنبر مع الأساتذة في العهد العثماني

(١٢ حزيران ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)



مع طلابه في مكتب عنبر سنة (١٩٣٣م)

بين شيخي العربية
المبارك والبزم

وكشأن الأقران في كل أوان، ما لبثت أن نشأت بين المبارك ومحمد البزم منافسة، أفضت إلى عداوة.

وكان محمد البزم قد انضم إلى سلك التدريس في مكتب عنبر سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م)[١]، وكان يومئذ أحد شعراء دمشق الأربعة، وهم: خير الدين الزركلي، وخليل مردم، وشفيق جبري، وكان البزم فصيح اللهجة، بيِّن الأسلوب، لا يتكلم إلا اللغة البليغة[٢]، بيد أنه كان جارحاً في قوله، لا يكاد أحد من الأدباء يسلم من لسانه[٣].

فكان للشيخ عبد القادر جولات مع البزم، يتنادر بها الطلبة، أو تنقل إليهم عن طريق السماع، وقد انقسموا بين مؤيد للمبارك، ومؤيد للبزم[٤]، وكانت

(١) من حاضر اللغة العربية: ص٨٢.
(٢) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢٥.
(٣) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢٦.
(٤) جيل الشجاعة: ص٢٣٣.

حلقاتهم لا تنفك تتناقل أخبار مناقشاتهما ومناظراتهما الأدبية، وتنسج حولها هالة من الأسطورة[١].

ومما كان يروى من مناكفاتهما اللغوية، أن جلسة ضمتهما ذات يوم، فذكر الشيخ عبد القادر المبارك في دَرْج حديثه كلمة «الغلاظة»، وفتح غينها، فقاطعه البزم على الفور، قائلاً بحدة: هي «الغلاظة» بكسر الغين، فبادره المبارك ببديهته المعروفة: الحمد لله الذي جعلك لا تسبقني إلا بالغلاظة[٢]!

ودخل محمد البزم ذات يوم الصف، فسأله أحد الطلاب عن كلمة من وَحْشي اللغة، فقال: نصف العلم لا أدري. فقال الطالب: لقد سألت عنها الأستاذ المبارك فعرفها، وهو يحفظ قاموس اللغة عن ظهر قلب، فقال البزم ساخراً: زادت نسخة منه في البلد[٣]!

بيد أن أشد هذه المناكفات على الشيخ عبد القادر كانت حين نظم محمد البزم أرجوزة، ونحَلها له، وجعلها على لسانه، وسارت في الناس، وأضحكتهم على الشيخ.

وقد تألم الشيخ عبد القادر أشد الألم، غير أنه حتى في ألمه لم يفقد الإنصاف، ولم يستفزه الغضب، فقد قال حين سئل عنها: أتمنى أن أقدر على نظم مثلها[٤].

وما كان الشيخ عبد القادر ممن يحب أن يخاصم أحداً، أو يرد على أحد[٥].

---

(١) جيل الشجاعة: ص٢٣٠.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك، وفي «جيل الشجاعة»: ص٢٣٠ رواية أخرى لهذه القصة، تجعل البزم هو الذي يخطئ في ضبط كلمة «الغلاظة».

(٣) فجر الاستقلال: ص٣٢.

(٤) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢٦.

(٥) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

ومع ذلك فقد كان كلٌّ من الشيخين يعرف قدر صاحبه، وحين دارت الأيام وأصبح مازن نجل عبد القادر طالباً في صفِّ مدرِّسُه محمد البزم، قال له أبوه: هذا عالم، استفد منه. وكذلك حين عرف محمد البزم أن مازناً هو ابن الشيخ عبد القادر قدَّمه على الطلاب، واهتمَّ به[1].



(١) مقابلة مع د.مازن المبارك.

مدرسة الأدب العليا

في عام (١٣٤٧ـ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩ـ١٩٣٠م) افتتحت مدرسة الأدب العليا[١] في بناء معهد الحقوق، قرب التكية السليمانية على ضفاف بردى[٢]، وعين الأستاذ الشاعر شفيق جبري مديراً لها، وانتدب الشيخ عبد القادر المبارك للتدريس فيها مع لفيف من علماء دمشق، منهم الأستاذ سليم الجندي، والشيخ عبد القادر المغربي[٣].

وقد فتحت المدرسة أبوابها لكل مدرِّس ومعلم يرغب في الحصول على شهادة عالية، وما أكثر من كان يريد الحصول عليها منهم، ومن ثم تفاوتت أعمار طلابها، فقد اجتمع في ذلك العام من طلابها الأستاذ علي الطنطاوي، وأنور العطار، وسعيد الأفغاني، وجميل سلطان، وزكي المحاسني، مع من هم أكبر سناً منهم، كالأستاذ سليم الزركلي، بل كان بعض الطلاب من جيل آبائهم كالشيخ زين العابدين التونسي، والأستاذ عبد الغني الباجقني[٤].

---

(١) هذه المدرسة كانت نواة لكلية الآداب فيما بعد، انظر «ذكريات علي الطنطاوي»: ١/ ٢٣٤، ٢/ ١٩٩، ومحمد المبارك في تأبين سليم الجندي: ص٣٣.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) محمد المبارك في تأبين سليم الجندي: ص٣٣.

(٤) ذكريات علي الطنطاوي: ٢/ ٢٠١ـ٢٠٢.

وكان الشيخ عبد القادر يدرِّس فيها مادة فقه اللغة، ساعتين في الأسبوع مساءً، فكان يعمل على تحضير مادته خلال أسبوع كامل، أي من ساعة عودته من إلقاء درسه إلى ساعة ذهابه إليه ثانية[١].

وقد ترك لنا الدكتور منير العجلاني صورة عن إحدى محاضراته في هذه المدرسة، حين قال: «كانت أعضاؤه تتنعم بما يلذه من لفظ أو معنى مثلما تتنعم أذناه، وكان يؤدي هذه الألفاظ والمعاني إلى الناس على صورة مخصوصة، هي الصورة المباركية، كان كلامه الحركة تتكلم، وكانت حركته الكلام يتحرك، بل الكلام يركض، حضرت بعض مجالسه فكنت كمن يرى أمواج البحر تتلاطم، ولو رأيته ساكناً صامتاً لبقيت له في نفسي صورة البحر الهائج.

كان يدرّس اللغة في قاعات كبيرة بين أيدي طلاب خبثاء، فجعلته سَعَة القاعة يتكلم كمكبر الصوت، وجعله خبث الطلاب أشد منهم مكراً، فإن رغبوا عن العلم فقد عرف كيف يرغبهم في العلم، بأسلوب بارع، يفتح به مغاليق نفوسهم، وينشط عقولهم، وهذا الأسلوب ينتقل به بين نصح الواعظ، وسُخْر المضحك، ونكتة الظريف، ومنطق العالم، ولعل سر نجاحه العميق أنه كان مؤمناً برسالته، مبشراً بمعتقداته، ينزل إلى مستوى طلابه، ولا ينتظر منهم أن يصعدوا إلى مستواه.

من الأساتذة من يجلس على المنبر لا يفارقه، أما المبارك فكان يذرع قاعة الدرس شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، كل مكان في القاعة مكانه، ولم يكن مكانه في القاعة مكانه، ولو أن طالباً في أقصى الصف همس في أذن رفيقه همسة ناعمة لسمع لها من فم الأستاذ الجواب الذي يرتضيه التلاميذ كلهم، ولا يرون جواباً أحلى منه، وإنهم ليتضاحكون له مهما يكن شديداً عليهم، فقد حببه إليهم أنه يحبهم، وأنه صريح لا حدَّ لصراحته»[٢].

---

(١) ترجمة الشيخ عبد القادر المبارك، لهاني المبارك.

(٢) مجلة المجمع: مج٢٦/ج١/ ٤٦٠ـ٤٦١.



أساتذة ومجازو مدرسة الأدب العليا سنة ١٩٣٢م

في الصف الأعلى: شفيق جبري، وعن يمينه عبد القادر المبارك وعن يساره سليم الجندي.

وفي الصف الأسفل: عبد القادر المغربي، وعلي الجزائري

أما الطلاب، فعلى اليمين:

١- أديبة فارس
٢- منيرة علي المحايري
٣ - محمد علي السرّاج
٤ - منير الريس
٥ - حلمي اللحام
٦ - زكي المحاسني
٧ - مصطفى الصواف
٨ - عبد الرزاق الباجقني
٩ - أنور عطار
١٠ - عثمان الشققي
١١ - بهاء الدين عيسى
١٢ - إبراهيم برصا
١٣ - محمود شحادة

وعلى اليسار:

١٤ - مليحة سعيد
١٥ - جميل سلطان
١٦ - عبد الغني الباجقني
١٧ - عمر شخاشيرو
١٨ - محمد الجيرودي
١٩ - أنور سلطان
٢٠ - محمد سعيد الأفغاني
٢١ - عبد الرحمن التكريتي
٢٢ - محيي الدين قضماني
٢٣ - انطون موسى
٢٤ - وديع شحيد

حزنه على وفاة شيخه
المحدِّث الأكبر بدر الدين الحسني

كان الشيخ بدر الدين الحسني هو شيخه الأثير لديه، وكان عبد القادر ملازماً له ولدروسه ملازمة تامة، لا يكاد يغيب عنها[(١)].

وقد بلغ الشيخ بدر الدين منزلة في عصره لم ينلها أحد من العلماء، فكان أكبرُ حاكم في البلاد منذ أيام الأتراك حتى عام وفاته (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) يجثو أمامه على ركبتيه، والشيخ في ركن زاويته المتواضعة في هيبة دونها هيبة الملوك، وكان لا يزور الحكام، بل يرسل إليهم رسولاً في كل أمر يهم المسلمين، ويزور الفقراء والبسطاء، بل السجناء، ويأنس بلقاء المساكين[(٢)].

وكان لا يتكلم إلا بما لا بدَّ منه من الكلام، وربما اكتفى بشطر كلمة، واستعان على مراده بالإشارة[(٣)].

وكان له دروس خاصة وعامة، فمن دروسه الخاصة ما كان يعقده في غرفته في دار الحديث الأشرفية، شرقي قلعة دمشق، أما درسه العام فكان في مسجد

(١) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

(٢) شيخنا العظيم لمحمد المبارك، مجلة حضارة الإسلام العدد (٦) ص(١٤).

(٣) المصدر السالف: ص١٦.

بني أمية تحت قبة النسر كل يوم جمعة، أما درسه في داره في حارة النقاشات في حي النوفرة، فكان للواردين إليه من بعد صلاة المغرب[(١)].

وكان منهج الشيخ بدر الدين في علمه أن يعيد إلى الدين حياته، ويضع الإسلام موضعه الصحيح في الحياة، فيجعله عقيدة في القلب، وفكراً في العقل، وروحاً في مجتمعٍ سيطر الخمول على شطرٍ منه، فاكتفى من الدين باتخاذ القرآن الكريم للتبرك، وتلاوته للرقى، وشطر آخر منه، مبهور بالغرب، معجب بقيمه[(٢)].

وكان لدروس الشيخ بدر الدين الأثر الأكبر في حياة الشيخ عبد القادر، فقد لازمها ملازمة دائمة، وكان شديد الحب له، وكان الشيخ بدر الدين يبادله حباً بحب، وكثيراً ما كان يدخل بيته القريب من بيته، ويحنك أولاده[(٣)].

ولإعجاب الشيخ عبد القادر بدروس شيخه بدر الدين كان يغري طلابه في مكتب عنبر بحضورها، وخاصة درسه في بيته، مما كان له أثر كبير على بعضهم، فقد فتح لهم أبواب الثقافة الإسلامية والشرعية، فغدوا من كبار دعاتها[(٤)].

❁ ❁ ❁

هذه الصحبة المفعمة بالحب والإعجاب كانت تزداد رسوخاً في قلب عبد القادر على مدار السنين لشيخه، حتى إذا حان الفراق، وأدركت الشيخ بدر الدين الوفاة، لم يقوَ الشيخ عبد القادر على تحمل فجيعة المصيبة، فاعتكف في بيته ثلاثة أيام، قابعاً في غرفته، مستغرقاً في الحزن والبكاء، ولسانه يردد:

---

(١) انظر عن دروس الشيخ بدر الدين «شيخنا العظيم» لمحمد المبارك، مجلة حضارة الإسلام: العدد ٦، ٨.

(٢) بدر الدين الحسني، د. مازن المبارك: ص٤٨.

(٣) المصدر السالف: ص١٦.

(٤) المصدر السالف: ص٣٤.

لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون[١].

وحين سكنت نفسه، وهدأ حزنه أنشأ قصيدة في رثاء شيخه افتتحها بقوله:

هلِ الفَلَكُ الأعلى من الشَّمْسِ والبَدْرِ   خلا أم خَلَتْ دارُ الحديثِ من البَدْرِ
وهل قُبَّةُ الدُّنيا تكدَّرَ بَدْرُها   أمِ اسْتُلَّ بَدْرُ الشَّام من قُبَّةِ النَّسْرِ
فهاتِ أيا دارَ الحديثِ حديثَهُ   فقد كدتُ أنسى دهشةً كلَّ ما أدري

فالشيخ الذي افتقدته دمشق بمنزلة كبار المحدِّثين في تاريخنا:

ويا قُبَّةَ النَّسْرِ ارجعي من دروسه   صدى ابنِ جبيرٍ والبخاريِّ والثوري
عنِ الشيخِ بدر الدِّين مَنْ قام فيكما   مقامَ ابنِ عبد البَرِّ والحسنِ البَصْري
أعيدا صدى درسَيْه نسمعْ به صدى   حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ وشُعْبَةَ والزُّهْري

وهو قد عاش ما عاش في تقى وصلاح:

ثمانين عاماً قد طواها وسبعةً   دؤوباً على الحُسْنى نفوراً من الوِزْرِ
وضاهى سعيدَ بن المسيّب في التُّقَى   وأهلُ التقى كالقابضين على الجَمْرِ

وهو في صدق اللهجة كأبي ذر، وفي غزارة العلم كالإمام أحمد ابن حنبل، وفي المهابة عند الملوك كبشر الحافي، مع تواضع في عزة كعمر بن الخطاب:

تحلَّى بحب الخير للناس كلِّهم   وذكَّرَهُمْ في صِدْقِهِ بأبي ذَرِّ
وكُنَّا نرى منه الإمامَ ابنَ حنبلٍ   غزارةَ عِلْمٍ وابتعاداً عن الفَخْرِ
له بالتُّقى عند الملوك مهابةٌ   كما وصفَ المأمونُ بِشْراً أبا نَصْرِ
تواضُعُه في عِزَّةٍ عُمَرِيَّةٍ   حماها جلالُ الله من آفة الكِبْرِ

ولم يُرَ في علم الحديث مثله:

ولم يُر في علم الحديث كفنِّهِ   ولا عبقرياً فيه يَفْرِي كما يَفْرِي

---

(١) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

إذا عبَّ في درس الحديث عُبابه تتابعتِ الأمواجُ من لُجَجٍ خُضْرِ
تروقكَ منه عنعناتٌ تناسَقَتْ كأسْجاعِ طيرٍ أو موازينَ من شِعْرِ

وهو يرق للفقير، ويأسى للمظلوم:

وكم مَرَّةٍ شاهدتُهُ متململاً وللدَّمْعِ في خَدَّيه سِلْسِلَتا قَطْرِ
وما ذاكَ إلا أن رأى وجهَ شاحبٍ طوى ما طوى ما قد جَنَتْهُ يدُ الفَقْرِ
أو زارَه ذو نَكْبَةٍ متظلِّماً على وَجْهِهِ خَطَّ البلا آيةَ القَهْرِ[١]

❋ ❋ ❋

وكان الشيخ عبد القادر قد وصف شيخه بالليث شجاعة وغيرة فقال:

أَعِرِّيستَيْ ليثٍ له غيرةٌ على حِمى كلِّ حقٍّ لا حمى زيد او عمرو[٢]

ثم قال:

أأرداكما خَطْبٌ أصمّ صداكما أمِ الليثُ آلى لا يعودُ إلى الخِدْرِ

وألقى الشيخ عبد القادر قصيدته هذه في جامعة دمشق، ثم آب إلى بيته، وأوى إلى فراشه، فرأى فيما يرى النائم شيخاً في مسجد كبير، وقد ازدحم الناس على درسه، فسأل أحدهم: من هذا الشيخ؟ فقيل له: هذا الإمام المحدث الليث بن سعد. فالتفت عبد القادر، فإذا بالشيخ بدر الدين يجلس إلى جانب الليث، فنظر إليه الشيخ بدر الدين، وقال له: أي يابا، هذا. فانتبه عبد القادر من منامه، وقد فهم مراد الشيخ بدر الدين، إذ أحب أن يشبهه بالليث بن سعد لا بالأسد، فقال عبد القادر وهو يقص ما رأى: لقد علمني الشيخ بدر الدين تفسير ما قلت[٣].



---

(١) أثبت هذه القصيدة بتمامها في آخر هذا الكتاب.

(٢) العرِّيسة والعرِّيس: الشجر الملتف، وهو مأوى الأسد في خِيسه. «اللسان» (عرس).

(٣) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

بشائر الاستقلال

كانت فرنسة قد تعبت من وجودها في سورية، وهي تواجه فيها مقاومة مسلحة أحياناً، ومقاومة سياسية أخرى، فرأت أن خير ما تفعله أن تضع حداً للانتداب، وأن تمنح سورية نظام دولة مستقلة ذات سيادة، وأن تضمن هذا النظام الجديد بمعاهدة، وقد اتفقت على ذلك مع حليفتها بريطانيا العظمى[١].

فما إن عُيِّن الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية في (١٢) أيلول سنة (١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م)[٢] حتى أعلنت فرنسة أن الوقت قد حان لإنجاز وعدها باستقلال سورية[٣].

وكذلك كان، ففي (٢٧) أيلول (١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م) أعلن استقلال سورية، وتوالت اعترافات دول العالم به[٤].

وبرغم أنه استقلال منقوص، ما زال فيه الجيش الفرنسي قابعاً في أرضنا، فقد رأى فيه الشيخ عبد القادر بارقة أمل للخلاص من ربقة هذا الاحتلال

---

(١) صحافة وسياسة (سورية في القرن العشرين)، نصوح بابيل: ص١٧٨.

(٢) المصدر السالف: ص١٧٢، وقد توفي مسموماً يوم الأحد (١٧) كانون الثاني (١٩٤٣م).

(٣) المصدر السالف: ص١٧٦.

(٤) المصدر السالف: ص١٧٨.

البغيض، فوقف بعد سنة من إعلانه في (٢٧) أيلول سنة (١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م) ليلقي قصيدة يمجد فيها هذا الاستقلال، وليمدح بها الشيخ تاج الدين الحسني الذي كان لسورية في تاريخها الحديث مثل سيف بن ذي يزن لليمن في تاريخها القديم، يقول في مطلعها:

مَنْ مجَّدَ النَّاسُ ذكرى عَهْدِهِ الحسنِ ... تاجُ ابنِ ذي يَزَنٍ أم تاجُنا الحسني

لا سيَّما في بلاد الشَّام واليمنِ ... تاجانِ ذكراهما في الكونِ خالدةٌ

في عَهْدِه خيرَ ما يرجون للوطنِ ... كلاهما قومُهُ باهَوْا به ورأَوْا

ولم يكن عهد تاج الدين الحسني عهد رخاء واستقرار، فقد كان التطاحن السياسي على أشده بين الأحزاب السياسية، وكانت البلاد تعاني من نقص المواد الغذائية، والخبز، ويبدو أن الشيخ عبد القادر كانت له معاناته في تلك السنة أيضاً، فقد أشار إليها ولم يفصح عنها، بقوله:

وكان فيها كلانا جِدَّ ممتحنِ ... مضى على نعمةِ استقلالنا سنةٌ

غير أن ما كان يهمه حقاً أن تنعم البلاد بالرخاء، وأن تتخلص من أزمة غذائها، فيقول:

كي نستزيد من الخيرات والمِنَنِ ... يا ملهمَ الشُّكْرِ ألهمنا رعايتَهُ

أقصى عنايتِها بالخُبْزِ والمُؤَنِ[١] ... وأَلْهِمِ المِيْرَةَ الموهوبَ مجلسُها

❁ ❁ ❁

عاش الشيخ عبد القادر أيام بشائر الاستقلال، غير أن عينه لم تكتحل برؤية الجلاء التام، إذ مات قبله بنحو نصف عام.

❁ ❁ ❁

(١) أثبت هذه القصيدة في آخر هذا الكتاب.

دار المعلمين العليا

وفي عام (١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م) أنشئت دار المعلمين العليا، وتولى الشيخ عبد القادر تدريس اللغة العربية فيها، وهي آخر ما تولاه من مناصب[١].



(١) مجلة المجمع: مج٢١/ج١-٢/ ص٨٢، مج ٢٦/ج١/ ٤٥٩.

وفـــاتـــه

وبقي على دأبه الذي عُرف به، حتى اعتراه مرض، توفي على إثره في (٢٧) تشرين الثاني (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م)[١]، وله من العمر تسع وستون سنة، وشيع من بيته في حي النوفرة قرب باب جيرون، وصلي عليه في الجامع الأموي، ثم دفن في مقبرة باب الصغير، قرب الضريح المنسوب للصحابي الجليل بلال الحبشي، رضي الله تعالى عنه[٢].

وقد بكاه أصدقاؤه وتلاميذه، وكان وقع وفاته على صديق عمره الأستاذ محمد كرد علي كبيراً، فقد وقف على قبره، والألم يعتصر قلبه على فراقه، حتى إنه كان بحاجة إلى من يوصله إلى بيته من شدة حزنه[٣].

❁ ❁ ❁

ويصل نبأ وفاته إلى تلميذه الشاعر زكي المحاسني، وكان في القاهرة، فيبكيه من على ضفاف النيل بقصيدة مؤثرة، يقول في مطلعها:

يـا غـريـبـاً والـشَّـامُ تـنـزِفُ بُـعْـدا   وهـواهـا يُـغْـرِيْـكَ مُـمْـسى ومَـغْـدَى

---

(١) مجلة المجمع: مج٢١/ج١-٢/ ص٨٢.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢٠.

مـا ظـلالُ الـنـخـيـلِ رَفَّـتْ عـلـى الـنِّـيــ ـل لـتُـنْـسِـيْـكَ لـلـمُـحِـبِّـيـن عَـهْـدا

ويصف شيخه عبد القادر فيها بقوله:

أيـهـا الـمـنـتـئـي أجـاءك أن الـشَّــ (م) ـيـخ قـد وسَّـدوه فـي الـشَّـام لـحـدا

كـان نـبـعَ الـفُـصْـحـى فـيـا لـيـت أنـي از ددتُ مـن فَـيْـضِـهِ الـمـبـارك وِرْدا

يـسـكـبُ الـمـعـجـمَ الـعـمـيـمَ فـيـرويــ ـه ويـأتـي عـلـيـه حِـفْـظـاً وسَـرْدا

أتـرى الأصـمـعـيَّ وابـن الـمـثـنَّـى فـي جـلابـيـبـه الـنـقـيـة رُدَّا

كـان حُـلْـوَ الـحـديـث مـزدحـمَ الأَخْــ ـبـارِ بـل كـان فـي الـتـكـلُّـمِ فَـرْدا

هــو بــحــرٌ بـغـيـر جَـزْرٍ فـيـا لـيــ ـتَ اللَّيالي زادَتْهُ في العُمْر مَدَّا[١]

❁ ❁ ❁

وقد أطلق اسمه على إحدى الثانويات في دمشق، تخليداً لذكراه، ولما بذله من جهد في نشر العربية بين أجيال أتيح له تعليمها، فغرس حبها في عقولها وقلوبها.

❁ ❁ ❁

---

(١) أثبت القصيدة في آخر هذا الكتاب، وقد نظمها زكي المحاسني في (١٣) كانون أول (١٩٤٥م) ولم تنشر في ديوانه الذي طبعته وزارة الثقافة في دمشق سنة (٢٠٠٦م).

آثـــاره

تلاميذه

عُرف الشيخ عبد القادر بقِلَّة تآليفه على سَعَة علمه، وغزير اطلاعه، وكان عزاؤه في ذلك أنه خرّج طلاباً قاموا له مقام الكتب، فقد ترك أجيالاً متعاقبة أخذت عنه صحيح اللغة، فقوّم ألسنتها، وبثّ فيها حب الفصحى[1]، فنبغوا في الأدب والشعر، وكان له الفضل في تشجيعهم وتسديد خطاهم[2].

وقد كان الشيخ عبد القادر واعياً لرسالته تمام الوعي، فقد قال مرة، وقد سئل عن مؤلفاته: أنا كتبي تلاميذي، كل واحد من تلاميذي كتابٌ من كتبي[3].

فهو إن لم يغرس شجرة، فقد مهد الأرض التي غرست فيها الأشجار، وغذاها وروَّاها[4].

ومن ثم لم تكن صلة الشيخ عبد القادر بطلابه صلة أستاذ بطلاب، وإنما كانت صلة مربٍّ وصديق[5]، وكان يبذل اهتمامه أكثر ما يبذله لمن يأنس منهم

---

(١) مكتب عنبر للقاسمي: ص٥٠.

(٢) مجلة المجمع: مج٢١/ج١-٢/ ص٨٣.

(٣) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

(٤) مجلة المجمع: مج٢٦/ج١/ ص٤٦٤.

(٥) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

حب العلم والمطالعة، فقد كان يناقشهم، ويدفعهم نحو حب العربية والبحث فيها، ولا يبخل عليهم بوقته، فهم معه في داره وبين كتبه[١]، ومن أشهر من نبغ منهم: علي الطنطاوي، وسعيد الأفغاني، وظافر القاسمي، وزكي المحاسني، وأنور العطار، وجميل سلطان، وابنه محمد المبارك[٢].

وكان أكثرهم صحبة له وتأثراً به الأستاذ علي الطنطاوي، فقد صحبه نحواً من ربع قرن، وكان يزوره في بيته، ويذهب معه إلى مجالس أصحابه، ويلازمه أكثر مما يلازمه أولاده[٣]، بل كان له أكثر من ولد[٤]، وقد حكى لنا جانباً من تأثره به، فقال: «لقد كنا نقلد لهجته، ونحكي صوته، حتى صارت هي لهجتي في التدريس وأنا لا أدري، لما كنت أدرس في بغداد أقيمت حفلة سمر في آخر سنة (١٩٣٨م)، فسأل الطلاب مدرسيهم على عادة اعتادوها: هل يأذنون لهم أن يقلدوهم؟ فكان منهم من أذن، ومنهم من أبى، وكنت فيمن أذن، فقام طالب يقلدني بزعمه، ولكنه قلد شيخنا المبارك. فقلت: ويحك، هذا شيخنا المبارك، وإذا بالطلاب يصيحون من الأركان الأربعة: بل هذا أنت، هذا أنت، وإذا أنا لطول ما حاكيت الشيخ قد صرت مثله، أعني مثله في لهجته ونغمته، لا في علمه ولغته، أين أنا من علم الشيخ؟[٥]».

وحين نشر الطنطاوي كتابه الأول «الهيثميات»[٦]، وذلك سنة (١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م)، أهداه لشيخه المبارك، ولأستاذه الجندي، فقال في إهدائه: «إلى روح

(١) ترجمة الشيخ عبد القادر المبارك، لهاني المبارك.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢١.

(٤) من حديث النفس للطنطاوي: ص١٣٥.

(٥) ذكريات علي الطنطاوي: ١/ ١٢٠، وانظر مكتب عنبر، مقدمة الطنطاوي: ص١٩.

(٦) هو مقالات كان ينشرها باسم «أبو الهيثم»، انظر «ذكريات الطنطاوي»: ٢/ ١٩٩.

المنفلوطي سيد كتاب العصر، وإلى حضرة شيخي علمي العربية الجندي والمبارك»[١].

وقد تأثر بطريقته في شرح الأدب، وهو الذي أخذ بيده، فأطلعه على كنوز الثقافة العربية، فقال الطنطاوي في ذلك: «لي في شرح الأدب طريقة قلَّ اليوم سالكوها، ولعلي استفدتها من اثنين: من الأستاذ أحمد الإسكندري لما كنت أحضر دروسه في دار العلوم العليا التي صارت تدعى اليوم كلية دار العلوم، والشيخ عبد القادر المبارك الذي لم أر فيمن قرأت عليه، وكنت تلميذاً له، ولا فيمن رافقته في التدريس، وكنت زميلاً له، من كان في درسه حياة كحياة درس الشيخ المبارك»[٢].

«وهو الذي أخذ بيدي، فأطلعني على كنوز الثقافة العربية، وطبع نفسي بطابعه، حتى لأستغرق أحياناً في الدرس، فإذا بي أتكلم بلسان المبارك ولهجته، وأتحرك مثل حركته، والطلاب ينظرون مدهوشين»[٣].



وحين نبغ من طلابه في مكتب عنبر شعراء مثل أنور العطار وزكي المحاسني وجميل سلطان وعبد الكريم الكرمي، بادر إلى إقناع الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي لإقامة حفلة شعرية لهم في المجمع، تشجيعاً لهم[٤].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي: ٢/ ١٩٨ـ١٩٩.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي: ٨/ ٢٠٨.

(٣) من حديث النفس: ص١٣٩.

(٤) مقابلة مع د. مازن المبارك.

وقد نسب الأستاذ سعيد الأفغاني تلك المبادرة إلى الأستاذ سليم الجندي في كتابه «من حاضر اللغة العربية»: ص٩١، ولا مانع من أن يكون الأستاذان قد بادرا معاً إلى ذلك، وقد عرف عنهما شغفهما بالعربية، وحرصهما على تشجيع طلابهما، بيد أن الأفغاني أغفل ذكر المبارك لموقف كان له منه، سأبينه.

وقد أقيمت الحفلة في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة (٤) تشرين الثاني سنة (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م) في ردهة المجمع، وألقى هؤلاء الشعراء قصائدهم[١].

وكان زكي المحاسني يود لو يكتب كتاباً عن أستاذه المبارك، لشدة تعلقه به، وعظيم انتفاعه منه[٢].

❁ ❁ ❁

ويصور لنا ابنه محمد المبارك جانباً آخر من تأثره به، فيقول: «طالما قضيت الساعات الطوال مع والدي في «شرح المعلقات»، أو «لامية العرب» للشنفرى، أو «المقصورة الدريدية»، أو «مقامات الحريري»، أو أمثالها من آثار لغتنا، وقد طفقت مذ كنت ناشئاً أعب من معين روايته الواسعة، وأنهل من ينبوع لغته العذبة في جلسات خاصة، أو مع زملائي في تجهيز دمشق ـ أي مدرستها الثانوية ـ أو في مدرسة الأدب العليا التي كانت النواة الأولى لكلية الآداب.

وقد كان لكثرة ما عانى من كلام العرب، وروى من لغتهم، وعرف من سيرتهم وأخبارهم، وأولع بأدبهم يخيَّل إلى جليسه والمستمع إلى حديثه أنه يصغي إلى واحد من رواة اللغة الأولين، وعلمائها المتقدمين.

ولم يكن شأنه في اللغة العربية شأن عالم يدرسها أو يعلمها، ولكنه كان معها في حياة وجدانية نفسية، يعيش مع شعرائها الأولين، ورواتها السابقين، وكانت معاجم اللغة، ولا سيما «لسان العرب» لابن منظور بيئة يعيش في جوها، ومع أصحابها.

ولم تكن اللغة عنده صناعة تعليم وقواعد للحفظ، ولكنها كانت تجري منه

(١) مجلة المجمع: مج٨/ ١٠٨ـ١١١.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

مجرى السليقة والطبع، حتى غلبت عليه في مجالسه الخاصة، بل بين أهله وأولاده»[١].

واعترافاً بفضله عليه أهداه كتابه «فقه اللغة»، فكتب في الإهداء:

«إلى روح باعث النهضة اللغوية في سورية

وغارس حب العربية وتراثها في نفوس الجيل العربي فيها

الراوية اللغوي، والدي وأستاذي

عبد القادر المبارك

أهدي كتابي هذا، فهو ثمرة من غرسه

وغيض من فيضه، رحمه الله، وأجزل مثوبته»[٢].

وعبر عن تأثره به كذلك في تأبينه لأستاذه سليم الجندي فقال: «لقد كان سليم الجندي ووالدي الأستاذين اللذين تلقيت عنهما لغة العرب وأدبهم، وغذياني بلبانها، ولقناني حبها حتى غدت جزءاً من قلبي ولبي، ولا زلت أشعر أمام ذكراهما شعور التلميذ الصغير أمام أستاذه الكبير، ولم يكن ذلك عن هوى في نفسي يميل بي إليهما، وهما أستاذاي، وأحدهما والدي، ولا عن تخيل يدفعني إلى تجسيم الحقيقة، ولكن عن يقين أنهما بلغا في اللغة منزلة لم يبلغها في بلاد العرب جميعها في هذا العصر إلا أفراد نوادر»[٣].

❁ ❁ ❁

ويكشف الدكتور عزة النص عن جانب آخر من جوانب هذه العلاقة بين الأستاذ والتلميذ، فيقول: «تتلمذت عليه في المدرسة الثانوية، وفي مدرسة

(١) فقه اللغة، وخصائص العربية لمحمد المبارك: ص٩ـ١٠.

(٢) فقه اللغة: ص٤.

(٣) محمد سليم الجندي في حفلة الأربعين: ص٣٣.

الأدب العليا بدمشق، وكان لا يكتفي في أن نأخذ عنه، وعن غيره في النهار، وكان يُلزمنا ـ كما يُلزم أبناءه ـ بمصاحبته في المساء إلى المساجد لنستمع إلى كبار الشيوخ، ونأخذ عنهم الحديث والتفسير والفقه، وكانت له مجالس عامرة في بيوتات دمشق المشهورة، مجالس أدب وعلم وسمر، فكان بعضنا يرافقه إلى هذه المجالس، ويستزيد من علمه وفضله»[١].

❁ ❁ ❁

هذا الحب الكبير لطلابه، لم يكن الشيخ عبد القادر يريد له أن يحدَّ أو يخدش، وهل غير الامتحان يفعل ذلك؟ ومن ثم كان الامتحان أكثر ما يكره الشيخ، لأنَّه قد يكون سبباً في نهاية هذا الحب، فكثيراً ما كان يردد: إني لأعطي ربع راتبي طوال عمري لمن يقوم عني بالامتحان[٢].

ومع ذلك لم يعدم الشيخ عبد القادر من طلابه من وقعت بينه وبينهم جفوة، منهم الأستاذ سعيد الأفغاني، وكان سببها اعتقاد الأفغاني أن الشيخ عبد القادر قد حال بينه وبين إيفاده إلى فرنسة لمتابعة دراسته، وأرسل بدلاً منه ابنه محمد المبارك، والشيخ بريء من ذلك[٣].

وقد انعكست هذه الجفوة في كتاب الأفغاني «من حاضر اللغة العربية» الذي أرخ فيه لجهود العلماء في الشام في نشر العربية إبان أواخر العهد العثماني والانتداب الفرنسي حتى بدايات الاستقلال، فقد كاد يهمل ذكره فيه، فلم يذكره إلا في مواضع ثلاثة ذكراً عابراً، وأغفل جهده في تعزيز العربية ونشرها وتعليمها إغفالاً تاماً، بل إنه لم يذكره في أساتذته في مكتب عنبر حين تحدث عنه.

---

(١) من تقديم د. عزة النص لمحاضرة ألقاها د. مازن المبارك عن الثقافة الإسلامية في الرياض سنة (١٩٦٥م).

(٢) ذكريات علي الطنطاوي: ٨/ ٢٤١. والمعروف عن الامتحانات في تلك الفترة أنها كانت في بعضها شفهية.

(٣) مقابلة مع د. مازن المبارك، وقد أخبره بذلك الأستاذ علي الطنطاوي.

ويبدو أن الشيخ عبد القادر حاول في حياته أن يزيل هذه الجفوة، وهو الذي لا يحب أن يخاصم أحداً[١]، فقد صادف مرة الأفغانيَّ في الطريق، فصافحه، ووضع يده على كتفه، وقال له: يا أستاذ أفغاني، والله إني أحبك[٢].

بيد أن الأستاذ الأفغاني أصر على موقفه منه، وذلك كان ديدنه، إذا استبدت في ذهنه فكرة لا يقلع عنها، يعرف ذلك من خالطه، وقد وصفه بذلك صديقه وعديله ورفيق دربه الأستاذ علي الطنطاوي[٣].

ولعلَّ الأستاذ الأفغاني قد شعر بخطئه في آخر عمره، فقد قال مرة للدكتور مازن المبارك، وكان مازن تلميذه الودود: لقد ظلمتُ أباك، ولو أني أعدتُ كتابة «من حاضر اللغة العربية» لعدلت موقفي من والدك[٤]. ولكنه لم يفعل، سامحه الله.



(١) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٤) مقابلة مع د. مازن المبارك.

مـؤلـفـاتــه

ما ألفه الشيخ عبد القادر من الكتب قليل، لايدل على سعة علمه، وغزير اطلاعه، ومدهش حفظه[1]، وربما يعود ذلك إلى استغراقه لساعات طويلة في القراءة، والتنقيب في الكتب، ثم انصرافه إلى التدريس، وانغماسه في حياة طلابه لساعات أخرى، وما بقي من نهاره كان يقضيه في مجالسة العلماء، أو في جلسات علمية مع أصدقائه المقربين ومريديه المحبين[2].

فقد كان له في الأسبوع جلسات تضمه مع أصدقائه ومحبيه، تتجلى فيها براعته في الحديث، وحضور بديهته، وتوقد ذهنه، وفصاحته وجرأته[3]، فكانوا ينهلون منها علماً وأدباً وتاريخاً، وكان يرد فيها على أسئلة السائلين، فتغدو تلك الجلسات بحق ندوات علمية وثقافية[4].

وأولى هذه الجلسات كانت تبدأ عقب صلاة الفجر، بعد انتهائه من صلاتها في المسجد الأموي، القريب من بيته، فقد كان يعود مع بعض أصدقائه ومحبيه

---

(١) مكتب عنبر للقاسمي: ص٥٠.

(٢) ترجمة الشيخ عبد القادر المبارك، لهاني المبارك.

(٣) مجلة المجمع: مج٢١/ج١-٢/ ص٨٤.

(٤) ترجمة الشيخ عبد القادر المبارك، لهاني المبارك.

إلى البيت، ليبدأ الدرس الأول، وكان يقرأ لهم في «مقامات الحريري» تارة، وتارة في السيرة النبوية[١].

وكانت له جلسة أسبوعية كل يوم ثلاثاء مساء في دار الأمير عبد القادر الجزائري في زقاق النقيب بحي العمارة، تنعقد بحضور الأمير طاهر الجزائري حفيد الأمير عبد القادر، وكان يحضرها عدد من الشيوخ، وعدد أكبر من الشباب، وتثار فيها مباحث علمية، ومذاكرات أدبية، وفي القاعة مكتبة كان يُفزع إليها إذا اختُلِفَ في مسألة من المسائل، فيُسْتخرج منها كتابها، ويُعطى للشيخ عبد القادر ليقرأ فيه ما أشكل عليهم[٢].

هذا الاستغراق في القراءة والتدريس، ثم تصديه لمشكلات الناس في حياتهم اليومية وقضاياهم، وقد أكسبه ذلك منزلة شعبية كبيرة[٣]، لم تترك له الوقت الكافي ليتوفر على تآليفه، والتأليف ـ كما هو معروف ـ بحاجة إلى عزلة، ثم جَلَد وقدرة على الجمع والتصنيف[٤].

ومع ذلك، لو وجد الشيخ عبد القادر من تلاميذه من دَوَّن له ما يقول لكان من ذلك كتب في الأمالي كأمالي الأولين[٥].

ثم إن ما تركه من تعاليقه وحواشيه على الكتب التي قرأها، لو جمعت وصنفت لكان منها كتب هي في غاية الشرح والتحقيق.



(١) محاضرة د. مازن المبارك في جامع التوبة.

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١-٢/ ص٨٤.

(٤) محمد المبارك في حفلة تأبين سليم الجندي: ص٣٣.

(٥) ذكريات علي الطنطاوي: ٨/ ٣٣٣.

ومن هذا القليل الذي تركه:

١ـ شرح المقصورة الدريدية، في اللغة[١].

وكان أبوه الشيخ محمد المبارك قد رغب إليه التوفر على شرحها[٢]، فجاء شرحها في مجلد كبير[٣]، فيه فوائد كثيرة لغوية وأدبية، ولا يخلو من فوائد تاريخية[٤].

وقد أُهديتْ نسخةٌ منه بعد وفاته إلى مجمع اللغة العربية بدمشق، لكنها فقدت منه[٥]. وبقيت نسخة أخرى منه في مكتبته، هي أشبه بالمسوَّدة له، فجمع أشتاتها د. مازن المبارك، وقام على تحقيقها د. إبراهيم عبد الله، وصدر في مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق[٦].

٢ـ فرائد الأدبيات العربية.

وهو مجموعة نصوص أدبية، مشروحة، وقد طبع[٧].

٣ـ المعلومات المدنية.

وهو منقول عن التركية، وقد طبع[٨].

٤ـ كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، لابن الأجدابي.

وهو من الكتب التي قرأها، وعلّق عليها، طبع بدار الفكر بدمشق سنة

---

(١) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١ـ٢/ ص٨٣.

(٢) مجلة المجمع: مج٢٦/ ج١/ ص٤٥٩.

(٣) فقه اللغة لمحمد المبارك: ص٩.

(٤) مجلة المجمع: مج٢٦/ ج١/ ص٤٦٤.

(٥) فقه اللغة لمحمد المبارك: ص٩، ومقابلة مع د. مازن المبارك.

(٦) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٧) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١ـ٢/ ص٨٣.

(٨) مجلة المجمع: مج٢١، ج١ـ٢/ ص٨٣.

(١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، وقد حرره، وشفع متنه بالشواهد الدكتور غازي طليمات، وراجعه وضبطه د. مازن المبارك.

٥ـ الصبر مطية النجاح.

هي قصيدة في الحِكَم لابن الظهير الإربلي المتوفى سنة (٦٧٧هـ)، جمعها وفسر ألفاظها الشيخ عبد القادر، ونشرها في مجلة الحقائق الدمشقية[١]، المجلد الثالث، الجزء السادس والسابع والثامن، ثم أعاد نشرها د. مازن المبارك، فقدم لها وضبط نصها، وطبعت في دار الفكر بدمشق سنة (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٦ـ مختارات شعرية.

منها نسخة بخط الشيخ عبد القادر، وهي في مكتبة ابنه د. مازن[٢].

٧ـ طرائف أدبية.

تتضمن حكماً وأشعاراً قرأها، منها نسخة بخط الشيخ عبد القادر، وهي في مكتبة ابنه د. مازن[٣].

٨ـ شرح بانت سعاد.

منه أوراق بخط الشيخ عبد القادر، ويبدو أنه شرح كبير، فقد توسع في إعراب القصيدة إعراباً تاماً[٤].

٩ـ كراسات مدرسية، ألفها في أول عهده بالتدريس[٥].



(١) مجلة الحقائق، أصدرها عبد القادر الكيلاني الإسكندراني في دمشق سنة (١٩١٠م)، وصدر منها اثنا عشر جزءاً، ربما كان آخرها في حزيران سنة (١٩١١م)، وقد توفي عبد القادر سنة (١٩٤٣م)، انظر «الصبر مطية النجاح» ص٧، حاشية رقم (٤).

(٢) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٣) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٤) مقابلة مع د. مازن المبارك.

(٥) مجلة المجمع: مج٢٦/ ج١/ ص٤٦١ـ٤٦٢.

وألقى محاضرات في المجمع العلمي العربي:

١ـ لغة المتنبي:

وقد نشرت في مجلة المجمع، مج١٤/ج١/ ٢٨٦ـ٢٩٣، ومج١٥/ج١ـ٢/ ٣٧٥ ـ ٣٧٨.

٢ـ ابن خلكان وقصصه في تاريخه[١].

٣ـ الشعر الخالد[٢].

٤ـ المشجر في اللغة[٣].

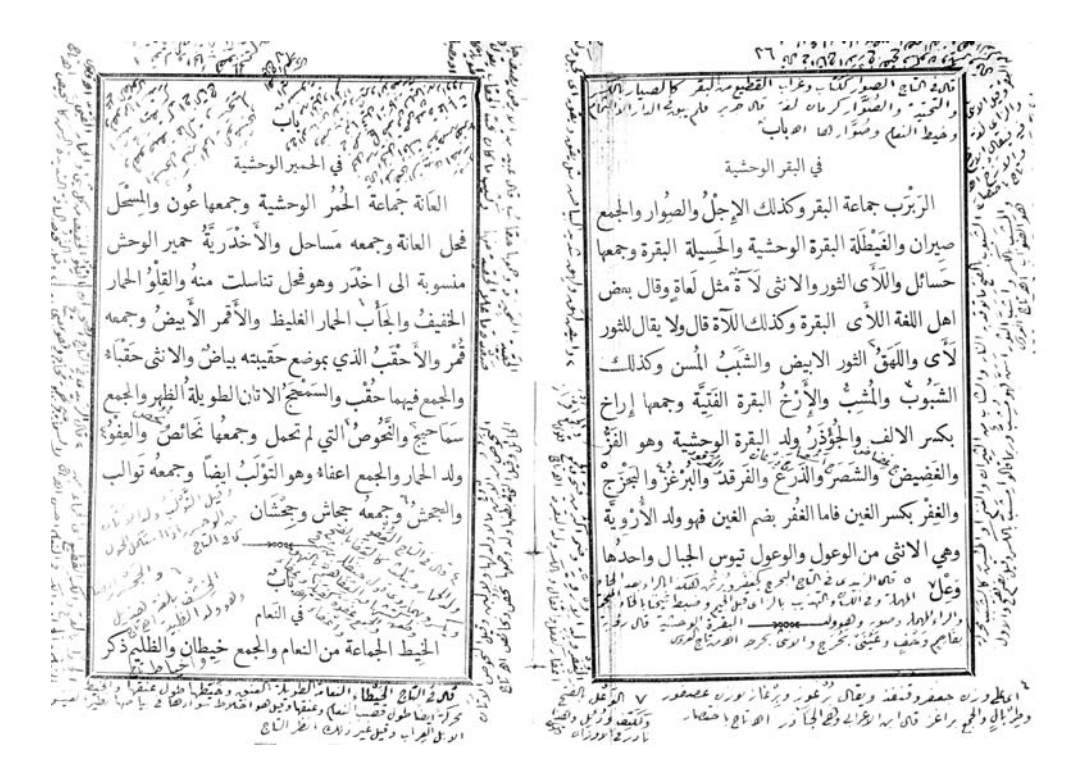
ولم أقف على محاضراته الثلاث هذه.

❁ ❁ ❁

(١) مجلة المجمع: مج٢١/ج١ـ٢/ ص٨٢.

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.



في البقر الوحشية

الرَّبْرَب جماعة البقر وكذلك الإجْلُ والصُّوار والجمع صيران والغَيْطَلة البقرة الوحشية والحَسيلة البقرة وجمعها حسائل واللأى الثور والانثى لآة مثل لعاة وقال بعض اهل اللغة اللأى البقرة وكذلك اللآة قال ولا يقال للثور لأى واللهَقُ الثور الابيض والشَّبَبُ المُسن وكذلك الشَّبوبُ والمُشِبُّ والإِرْخُ البقرة الفَتِيَّة وجمعها إراخ بكسر الالف والجُؤذَرُ ولد البقرة الوحشية وهو الفَزُّ والغَضيضُ والشَّصَرُ والذَّرَعُ والفَرقَدُ والبُرْغُزُ والبَحزَج والغِفْرُ بكسر الغين فاما الغُفر بضم الغين فهو ولد الأُرْوِيَّة وهي الانثى من الوعول والوعول تيوس الجبال واحدها وَعْل

باب

في الحمير الوحشية

العَانة جماعة الحُمُر الوحشية وجمعها عُون والمِسْحَل فحل العانة وجمعه مَساحل والأَخْدَرِيَّة حمير الوحش منسوبة الى اخْدَر وهو فحل تناسلت منه والقَلُوُ الحمار الخفيف والجَأْبُ الحمار الغليظ والأَقْمَر الأبيض وجمعه قُمْر والأَحْقَبُ الذي بموضع حقيبته بياض والانثى حَقْباء والجمع فيهما حُقْب والسَّمْحَجُ الاتان الطويلة الظهر والجمع سَمَاحيج والنَّحوصُ التي لم تحمل وجمعها نَحائص والعِفْوُ ولد الحمار والجمع اعفاء وهو التَّوْلَبُ ايضاً وجمعه توالب والجَحْشُ وجمعه جِحاش وجِحْشان

باب

في النعام

الخَيط الجماعة من النعام والجمع خيطان والظليم ذكر

نموذج من شروحه وتعليقاته بخطه

شِعْرُه

كان الشيخ عبد القادر المبارك ينظم الشعر غالباً في المناسبات[١]، وكان نظم الشعر شائعاً في عصره بين المتأدبين، فمن رزق منهم الموهبة والسليقة أضحى شاعراً، ومن لم يرزقهما بقي ناظماً[٢]، والشيخ عبد القادر في شعره أقرب إلى شعر العلماء إلا في القليل النادر مما ظهرت منه الروح الشعرية[٣].

ولعل قصيدته «بكر الشرق»، وهي في الحرية والدستور العثماني[٤]، من أوائل قصائده الطوال[٥].

ومنها قصيدة ألقاها في حديقة المنشية عند استقبال الأمير فيصل بن الشريف الحسين بعد عودته من مؤتمر الصلح في باريس سنة (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م)[٦].

وأخرى في رثاء شيخه المحدث الأكبر بدر الدين الحسني[٧].

---

(١) ترجمة الشيخ عبد القادر المبارك، لهاني المبارك.

(٢) مكتب عنبر للقاسمي: ص٤٩.

(٣) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١-٢/ ص٨٤.

(٤) انظر ص٤٣ ـ ٤٥ من هذا الكتاب.

(٥) ألحقت ما عثرت عليه من قصائده الطوال في آخر هذا الكتاب.

(٦) انظر ص٥٠ ـ ٥١ من هذا الكتاب.

(٧) انظر ص٩١ ـ ٩٢ من هذا الكتاب.

ولعل قصيدته «إحدى العبر بين البشر»، هي من أشهر قصائده، وقد عمد فيها إلى بث الوعي لسلوك طريق العلم، وتحطيم أغلال الجمود والتخلف، لتلحق أمتنا بركب الحضارة والرقي والاختراع والإبداع، بعيداً عن التقليد والكسل، والتواكل[١].

بيد أن ما حال دون ذيوعها الكبير استخدامه فيها غريب اللغة، فوجد الناس فيها دليلاً على تكلف الشيخ عبد القادر وولعه بالغريب.

والحق أن الشيخ عبد القادر الذي عاش في دنيا شعرنا القديم، يفسره لتلامذته وأصحابه، ويظهر لهم ما خفي من محاسنه، وجعل ذلك ديدنه وهجيراه حتى استأنس بغريبه، فاستعمله في شعره غير متكلف ولا متعجرف[٢].

ووراء ولعه بالغريب سعيه الحثيث لإحياء اللغة العربية، ونشرها بين الناس، وفي سبيل إحيائها لم يكن لديه كلمة غريبة أو مأنوسة، فاللغة بمفرداتها كلها يجب أن تبعث من معاجمها إلى الحياة، ثم لتبقِ الحياة من بعدُ ما تراه صالحاً لها.

وفي سبيل إحيائها نظم كذلك قصيدة في تاريخ اللغة، مطلعها:

شُغِفْتُ بتذكار الشُّعوبِ الأوائلِ وما خلَّفوه في الدِّيار الحوائلِ[٣]

وله قصيدة أخرى في اللغة، مطلعها:

لنا لغةٌ عن سالف المجد تُعْرِبُ فلله ما أبقتْ مَعَدٌّ ويَعْرُبُ[٤]

غير أن هاتين القصيدتين قد ضاعتا فيما ضاع من شعره.

وله مقطعات كثيرة في مناسبات مختلفة، تنتظر من يبحث عنها في مظانها.

---

(١) انظر ص٦١ ـ ٦٤ من هذا الكتاب.

(٢) مجلة المجمع: مج٢٦/ ج١/ ص٤٦٢.

(٣) مجلة المجمع: مج٢١/ ج١ـ٢/ ص٨٤.

(٤) مقابلة مع د. مازن المبارك.

ومن أجمل ما قرأت له، قوله:

تــحــمَّــلْــتُ خــوفَ الــمــنِّ كــلَّ رزيــة فــيــا أيــهــا الــمــنَّــان لا تــقــتــربْ مــنــي
فــأثــقــلُ مِــنْ حَــمْــلِ الــبــلا حَــمْــلُ مِــنَّــةٍ وحَــمْــلُ رزايا الــدهــر أحــلــى مــن الــمــنِّ
وعــاشــرتُ أخــدانــاً فــلــمــا بــلــوتــهــم حَسَدْتُ الذي قد مات في صِغَرِ السِّنِّ
وإنَّ عــدو الــعــقــل مــن لامــنــي إذا تــمــنــيــتُ أن أبــقــى وحــيــداً بــلا خِــدْنِ
إذا عرف المرءُ القلوبَ وما انطوت عــلــيــه ضــلــوعُ الإنــسِ حَــنَّ إلــى الــجِــنِّ
يــرى بــصــري مــن لا أودُّ لــقــاءه ويــؤلــم أنــفــي مــا يــفــوحُ مــن الــنَّــتْــنِ
وتــلــمــسُ كــفِّــي حــيــةً مِــنْ مُــصــافــحــي وتــســمــعُ أذنــي مــا تــعــافُ مــن الــلَّــحْــنِ



في بيتـه[1]

وما أحب أن أخلي سيرة الشيخ عبد القادر من الحديث عن حياته في بيته، وبين أولاده، وهذا جانب يلامس الشخصية على سجيتها، بعيداً عن التصنع والمراءاة، وتكشف عن أبعادها الإنسانية في تجلياتها الأسمى، وقلَّ من تعرض لهذا الجانب في سيرة علمائنا.

فقد كان الشيخ عبد القادر في بيته مثال الحزم والرقة في آن، فهو ألطف من نسيم الهواء، مع هيبة له في النفوس:

وهو يحب الرجولة ومظاهرها، ويكره الضعف والتخنث.

وما عرف عنه أنه ضرب أحداً من أولاده، أو رفع عليه صوتاً، أو كلَّمه بكلام فيه شدة أو عنف، وكذلك كان لا يحب أن يرفعوا أصواتهم في حضرته، أو مع أخواتهم، وحسبه في تربيتهم القدوة الحسنة، والتوجيه الحكيم اللطيف.

وكان يحاورهم بحرية، ولا يضيق بأسئلتهم المدرارة، ويكره الجدال المفضي إلى التنازع والخصام، ويتدخل أحياناً ليمنع هذا الجدل فيما بينهم، ولا يطيق أن يرى واحداً منهم مستسلماً للكسل، لا يعمل أي عمل.

---

(١) استقيت مادة هذا الفصل من د. مازن المبارك في مقابلة لي معه، وما ألقاه عن أبيه الشيخ عبد القادر في محاضرته في جامع التوبة، ومن الأوراق التي كتبها في سيرته ابنه هاني المبارك.

وعند الجد لا يعرف إلا الجد، وحين المزاح والمداعبة كان يمازحهم ويداعبهم، ويحض أولاده على إشاعة الحب والاحترام فيما بينهم، ويأمر الذكور منهم أن يخفضوا جناحهم لأخواتهم.

ويحضهم على العلم بإغرائهم بالقراءة، وإثارة روح التنافس فيما بينهم، وقد وضع لذلك في كل غرفة في البيت مجموعة من الكتب متنوعة، ترغيباً إليهم لقراءة ما يشاؤون منها دون قسر أو إكراه، وإذا ما سأله واحد منهم عن معنى كلمة استغلق عليه، أو عن خبر حادثة جهله، كان لا يجيبه على الفور، بل يأتي إليه بالمصادر والمراجع، ويحثه على فتح الكتاب ليرشده إلى مظان ما سأله عنه، تدريباً له على البحث والمطالعة.

وكان يصحبهم إلى مجالسه العلمية، ويرغب إليهم أن يجلسوا مع أصدقائه ومريديه حين يأتون إليه زوراً في بيته، ليتعلموا أدب المجالسة والحوار، وكثيراً ما أفادتهم هذه المجالس أكثر مما أفادتهم المدارس.

وكان يحكي لهم الطرائف، ويمتعهم في جلساته بأحاديث عن السيرة النبوية التي كان يحفظها عن ظهر قلب بأحداثها ورجالاتها وتواريخها، وأحياناً كان يمثِّلُ لهم بعض مشاهدها.

ويزرع في نفوسهم دائماً حب الوطن، والدفاع عنه، ويشجعهم على النضال مع رفاقهم في الحركات الوطنية، غير عابئ بما قد يهدد سلامتهم، من ذلك تشجيعه لهم على التطوع في حركة المقاومة التي تعاظم أمرها سنة (١٩٤٥م)، وتفجَّر الصراع إثرها مع الفرنسيين في حوادث البرلمان يوم (٢٩) أيار الشهير.

وقد تخلف ابنه مازن مرة عن مظاهرة خرجت بها مدرسته ضد الفرنسيين، وتسلل إلى البيت راجعاً، فقال له بحزم: ضع محفظتك، واخرجْ مع تلاميذ صفك، ولا ترجع إلى البيت حتى يرجعوا، ولما اعترضت الأم على كلامه، وقد أخذتها عاطفة الخوف على ابنها، قال لها: هل ابنك من مسك وعنبر، وأبناء

الناس من طين؟ ولولا أني أخجل أن أخرج بعمامتي هذه مع الأطفال لكنت في مقدمة تلك المظاهرة.

ولا ننسى أن الشيخ عبد القادر قد شارك في الثورة السورية ضد الفرنسيين، فقد كان يعمل على تأمين السلاح والذخيرة للثوار، وينقل إليهم أخبار تحركات القوات الفرنسية التي كان يزوده بها بعض أصدقائه الجزائريين المجندين ضمن قواتهم.

وحين قامت الثورات في فلسطين كان بيته مثابةً لعدد من قادتها، وكان يتعاون مع الشيخ محمد الأشمر في حل مشاكلهم، وتأمين حاجاتهم.

❁ ❁ ❁

هذه التربية الرشيدة كانت وراء نجابة أبنائه، فكان أكبرهم الأستاذ محمد المبارك، المفكر والباحث الكبير، صاحب المؤلفات الغزيرة والعميقة، وابنه الأستاذ هاني المبارك، وقد عرف بولعه بالتاريخ، والاشتغال به تدريساً وتأليفاً، وابنه الدكتور مازن المبارك، وهو أستاذ هذا الجيل في العربية، فقد تخرج به باحثون في اللغة والأدب من جامعات دمشق وقطر والإمارات العربية.

وله من الأبناء كذلك ممدوح وعدنان وعبد الهادي، وكلٌّ كان مميزاً في مجال عمله، ومن البنات نزيهة، وقد درست في كلية الحقوق، ووجيهة، وقد نالت إجازة في اللغة العربية.



ملحق

- قصائد عبد القادر المبارك
- مقاله: لغة المتنبي
- قصيدة الشاعر زكي المحاسني في رثائه

بكر الشرق[1]

تباشير الأنوار الشرقية

لقد عمَّتِ الأفراحُ أفئدةَ الورى ... ومنها على كل الوجوه لوائحُ
بأعظم نُعْمى للرَّعايا لهم بها ... جلالة مولانا الخليفة مانحُ
بحرية الإنسان فيما يخصُّه ... وهذا له كلُّ امرئٍ فيه صالحُ
بإطلاقنا من قيدِ سُلْطة عصبةٍ ... لهم في مضرَّاتِ العباد مصالحُ
حللنا وأطلقنا وفك أسارنا ... وناحت على أهل التعدِّي النوائحُ
وقد ترجمت للفاضلين فضائل ... كما شهرت للخائنين فضائحُ
وفاجأ عنوانُ الترقي انحطاطنا ... فجاء عقيبَ الكربِ للصَّدرِ شارحُ
وها نحن في دورِ حميد مقدَّسٍ ... لدينا احتفالات به ومراسحُ
وها هو فضلُ الجيش مع ضابطانه ... بآثاره كالشَّمْسِ في الشرق لائحُ

(١) مصححة بقلم ناظمها عبد القادر بن محمد المبارك الحسني الجزائري في غرة شعبان سنة (١٣٢٦)، طبعت على نفقة الحسيب النسيب السيد السري الأمير عبد الله باشا ابن الأمير عبد القادر الحسني الجزائري في مطبعة بدائع الفنون بالشام.

فيا أيها الجيشُ الذي طار صيته — وفي حقه حقاً أجيدت ممادحُ

لك الله جيشاً من بني الشعب دائماً — عليك تحياتٌ غوادٍ روائحُ

ويا ضابطان الجيش لله دَرُّكم — فأنتم لنهج العدل دمتم مصابحُ

ويا ضابطان الجيش لاحت عليكموا — من الجيش جيش الهاشمي ملامحُ

ويا ضابطان الجيش مِنْ شعبكم لكم — سلامٌ بعطر الحمد والشُّكْر فائحُ

ويا ضابطان الجيش أنتم حماتُنا — إذا حميت حربٌ على الشعب لاقحُ

ويا ضابطان الجيش أنتم حصونُنا — إذا صار يغشانا العدو المكافحُ

ويا ضابطان الجيش تتميم فضلكم — بأن لا تناموا الليل فالذئبُ سارحُ

ويا ضابطان الجيش لطفاً تثبتاً — هدوّاً سكوناً رَيثَ تصفو القرائحُ

فحاجتنا الآن اعتدال تألف — ملاطفةٌ رفقٌ تواصٍ تناصحُ

وحاجتنا الآن اتفاقٌ تعاضدٌ — مساعدةٌ عطفٌ تآخ تصالحُ

وحاجتنا الآن ائتلافٌ تحاببٌ — معاونةٌ لطفٌ تراضٍ تسامحُ

وحاجتنا الآن انمحاء ضغائن — تناسي مساوٍ للصَّلاح تجانحُ

فيا ضابطان الجيش حسنَ سياسة — برفقٍ وإلا استأصلتنا الجوائحُ

بلغتم مراماً غيركم رامَ مثله — فسالتْ وسالتْ بالدماءِ الأباطحُ

فإن مدحت أبطالَ جيشٍ فأنتموا — مزاياكموا قبل الجميع فواتحُ

رجوتم فما خبتم ونلتم منىً لكم — بها اللهُ والسلطان والشعبُ مادحُ

فإن أنتموا تممتموا ما بدأتموا — فأنتم لأبوابِ الترقي مفاتحُ

وإنْ لطف المولى بحسن صنيعكم — نجحنا وإلا طوَّحتنا الطوائحُ

فلا تلهكم منا عن الغرب صيحةٌ — فكم جلب الجيشَ العرمرم صائحُ

وحرية الأفكار مني قد اقتضت — بأني لكم جهراً بسري بائحُ

بعجتُ لكم بطني وموجبُ ديننا — كما أمرَ اللهُ العظيم التناصحُ

ولم أنكتم مثل ما كنتُ أولاً ... إذ الحق فينا الآن أبلجُ واضحُ
ويا أيها الشعب المقدّس ملكه ... أترضى بأن تُعزى إليك القبائحُ
أترضى وحاشا أن نعودَ كأمسنا ... وكلٌّ بتيار الجهالةِ سابحُ
أترضى وكلا لست ترضى لبعضنا ... بإظهاره ما للعواطف جارحُ
أترضى لنا باللهو دأباً ولو قضى ... بخسراننا من حيث ترجى المرابحُ
أترضى لنا خفي حنين نتيجة ... وفينا بروق العدل غر لوائحُ
أترضى بقول البعض لا صح قوله ... لذا الحال هذا الشعب ما هو صالح
أغاية هذا الحال فينا تشدق ... بلفظ «لتعش حرّية» وتفاصحُ
أيكفيكموا مني فتىً متشدقٌ ... خطيبٌ كما شاء الهوى متفاصحُ
أيقنعنا يا قوم لفظ «عدالةٍ» ... وكل لمعناها الحقيقي طارحُ
أحرية الإنسان للطيش تقتضي ... ليشمتَ بالشعبِ الحسودُ المكاشحُ
أحرية الأحرارِ تقضي على الورى ... ليكتبَ في بعضٍ لحظٍّ لوائحُ
أيطلب حزب الحر طيشاً وخفّةً ... وهرجاً ومرجاً كي تضيع الصَّوالحُ
أيقصد حزب الحر ضد نجاحنا ... وحاشاه أن يرضى بذلك ناصحُ
أغاية أبناء النجاح تصارخٌ ... أآية طلاب الترقي تصايحُ
فيا شعبُ ما هذا الضَّجيجُ كأنما ... إصابَتْكَ لا كانت خطوبٌ فوادحُ
ملأت فضاءَ الأرضِ والجوِّ ضجةً ... وما هكذا يا شعب تقضي النَّصائحُ
سكوتاً فكم صوت يؤدى إلى ردًى ... وربَّ صياحٍ في الحقيقة فاضحُ
فقد كان قومٌ يطلبون عداهموا ... فدلهموا بالصَّوْتِ في الحيِّ نابحُ
كذاك حكى التَّاريخُ والعقلُ شاهِدٌ ... بأنَّ التأني للمغالق فاتحُ
وقد ذم كلٌّ كلَّ أمرٍ مُلَهْوَجٍ ... فَرُضْ قَبْلُ ثم اركبْ فَمُهْرُك جامحُ
وإياك لا تُسْلِس له وهو رَيِّضٌ ... سينقادُ طوعاً إن تولاّه كابِحُ

فـيـا شـعـبُ رِفْـقـاً دائـمـاً وتـروّيـاً وجـدّاً فـهـذا الأمـر مـا فـيـه مـازحُ
ويا قومِ فلْنسْلُك على خيرِ مسلكٍ رويـداً لـئـلا يـطـمـعَ الـيـومَ طـامـحُ
ألـم تـعـلـمـوا أَنَّ الـحـيـاةَ ذمـيـمـةٌ إذا حملقتْ زُرْقُ العيونِ الطَّوالحُ
ألـم تـؤمـنـوا أن الـعـدوَّ إذا اسـتـوى لـديـنـا فَـوَجْـهُ الـعـيشِ أغـبـرُ كـالـحُ
فـيـا أمـةً حـازَتْ مـنـاهـا بـراحـةٍ ولا دمَ مـسـفـوح ولا عـرق سـافـحُ
وفـازت بـأقـصـى مـا تـمـنـتـه أمـةٌ ولا عضو مجروح ولا جرح قايحُ
ظـفـرتـم بـحـقٍّ فـالـزمـوه وحـاذروا شتاتاً إذا انقضت عليه الجوارحُ
حظيتم بذخرٍ فارغبوا فيه واحرصوا عـلـيـه إذا هـاجـت ريـاحٌ لـواقـحُ
وفزتم بما اهتزَّتْ به الأرضُ بهجةً سباسبها غيطانها والبطائحُ
وكـلُّ بـنـي الـدُّنـيـا إلـيـنـا بـدهـشـة لـيـعـلـم مـا ذا نـعـمـل الـيـوم لامـحُ
فـيـا قـوم فـلـنـحـسـن إدارةَ أمـرِنـا فكم بيننا يبغي التراجمَ سائحُ
وأعـمـالـنـا مـلـحـوظـةٌ وشـؤونـنـا مـراقـبـة والـضـد فـي الـضـد قـادحُ
ومـا الـعَـدْلُ إطـلاقُ الـلِّـسـان مـجـرَّداً وقول لأصحابِ الخيانة شارحُ
فيا قومِ فلنعمل ولا نقتصر على تبجحنا بالقول فالقولُ طائحُ
أليس كما نالت من العَدْل ألسنٌ كذلك تبغي مقتضاها الجوارحُ
وهل مقتضاها غير حسن فعالنا وكسب اغتنام الخير والخيرُ سانحُ
بـنـى وطـنـي فـلـنـقـدر الـعـدل قـدره ولا يـسـتـخـفـنـا عـن الـحـقِّ طـالـحُ
فـقـد آن إبـان الـفـعـال الـتـي بـهـا مـنـافـع فـي أوطـانـنـا ومـصـالـحُ
فهبوا إلى حُسْن المساعي بهمَّةٍ وعـزمٍ وحـزمٍ فـالـزمـانُ مـسـامـحُ
فحتى متى هذا التواني كأنَّما تخاطب أحرار القلوبِ تمازحُ
ألم تعلموا أن المليك رئيسُهُم مـواهِـبُـهُ تـتـرى لـهـم والـمـنـائـحُ
حـبـاهـم بـإسـعـافـاتـه وأمـدَّهـم بـحـالٍ بـه قـرّتْ عـيـونٌ طـوامـحُ

بحريةٍ يزداد إخلاصنا بها ... لشوكته ما دام والحق صابحُ

وما بقي السلطان والجيش هكذا ... فلا تختشوا ضيماً وبالحق صارحوا

فقد ذهب الدهر الخؤون بأهلهِ ... عقيبَ اقترابٍ منكموا فهو نازحُ

جنينا وتبنا لا نقضنا وربنا ... عن التائب الجاني عفوٌّ وصافحُ

فيا قومِ فلينفض غبار الخمول من ... هموا بين أهلِ العلم غرٌّ صرائحُ

لتظهر رجالُ العلم والفضلِ والنُّهى ... لتبرز لميدان المعالي الجحاجحُ

ويا أيها الأقوامُ طرّاً تهنأَوا ... بحقٍّ به الوجدان أضحى يصارحُ

منحتم بأسمى منحةٍ دوليةٍ ... فلله ممنوحٌ ولله مانحُ

روابط عثمانية جمعتكموا ... كما ضمَّ بين الرَّاحتين التصافحُ

وكل له دين به متمسكٌ ... وها أنا بالإسلامِ ديني مصارحُ

وحرية الأنام تحرُسُ دينهم ... وتحفظ دنياهم إذا لم يسامحوا

ومن كان بالدين الإلهي سامحاً ... فلست بدين الحق ديني أسامحُ

ويا شعب لا يأخذك مني تغيظٌ ... فإني على مقدار علمي مُناصحُ

نصحتُ لكم ما في ضميري نصيحةً ... وكل إناءٍ بالذي فيه ناضحُ

عسى نحفظ النعما ونصبح أهلها ... لكي تتحامانا الخطوبُ الفوادحُ

ونصبح تجار الترقي إلى العلا ... وكل بني تلك التجارة رابحُ

ولا عجبٌ يا شعبُ إن نلتَ حالة ... على مثلها طالت وهالت مذابحُ

ففوق سرير الملكِ مضطلع به ... أمينٌ عليه وافر العقل راجحُ

ركينٌ وقورٌ ثابت الجأش صدرُه ... رحيبٌ وإن ضمّت عليه الجوانحُ

خبيرٌ بأعباءِ الخلافةِ ناهضٌ ... إلى مقتضى حسنِ التدابيرِ جانحُ

فيا حبذا سلطاننا من خليفةٍ ... عواطفهُ بالمكرمات سوانحُ

لشوكته اليوم ازدياد تشكرٌ ... به صدحت في كل نادٍ صوادحُ

فَدُمْ يا أميرَ المؤمنين موفَّقاً　　وفعلكَ مشكورٌ وسعيكَ ناجحُ
وعِشْ يا مليكَ المسلمينَ مظفراً　　وأنتَ عن الحقِّ المبينِ تنافحُ
لك ازداد إخلاصُ الرعايا وكيف لا　　وكلّ فؤادٍ من ودادك طافحُ
أدامك ربُّ العرشِ جلَّ جلالهُ　　تحبر في ذكرى علاك المدائح
وأبقاك غوثاً للرعايا وملجأ　　وذكرك طيباً دونه المسك نافحُ
تزيد حمى الدنيا مع الدين قوة　　وجيشك غاد بانتصارٍ ورائحُ

❁ ❁ ❁

ونحن في نعمةٍ والله إن حفظت　　لتدْهشنَّ بنو الدنيا بنا وكفا
وترجعنَّ كما قد كان سيدنا　　فخر الرسالة والأنصار والخلفا

❁ ❁ ❁

أهني بني شعبي بحرية لها　　إذا ائتلفوا فضل عظيم النتائج
لئن مسَّنا داءٌ أهم علاجه　　فحرية الإنسان خير معالج
هي النعمةُ الكبرى التي بدوامها　　سنبلغ في العلياء أرقى المعارج
ودينك محفوظ ودنياك مثله　　فسر آمناً حرّاً بكل المناهج

❁ ❁ ❁

منحنا بفضل الجيش أكبر نعمةٍ　　تجل عن الإحصاء أوصافها الحسنى
بحريةٍ أضحت حياةً جديدةً　　وحازت كما يبغي بنو الوطن الحسنا
وساعة نلناها بإذن مليكنا　　شعرنا بتجديد الحياة وأحسسنا
لسلطاننا والجيش والشعب نهضة　　تزيد على مرِّ الزمان ولا تفنى
بها دام للسلطان مع ضابطانه　　أجل الثناء الجيد الطيب الأسنى



قالت الحرية الحقة الحمد لله

بعد العداوة صار الدهر يسديني　　　أبهى تحياته الحسنى ويهديني

وبعد أن ضلّ أبنائي بظلمته　　　وضلني ضاء يهديهم ويهديني

وقد سلمت وأبطالي وجيشيَ مِنْ　　　دهرٍ لقد كاد يرديهم ويرديني

لي منهموا كلُّ ضرغامٍ إذا اشتعلت　　　بالمالِ والروحِ نار الحرب يفديني

❁ ❁ ❁

والعلم والعدل والعمران غايتها　　　وهي السعادة للدنيا وللدين



آية الحديث المسلسل في الترحاب
«بسمو الأمير فيصل[1]»

أَجلِّقُ ما هذا البَها والتجمُّلُ ... فقد أدهشَ النُّظَّارَ فيكِ التأمُّلُ

تَقَلَّدْتِ منظومَ الضياءِ فأشْرَقَتْ ... قلائِدُ منها مُجْمَلٌ ومُفَصَّلُ

وقد حملت أدْوَاحُكِ النُّورَ فانْجَلَتْ ... كواكبُ من أغصانها تتهَدَّلُ

لَبِسْتِ مِنَ الأنوارِ حُلَّة زِيْنَةٍ ... زَهَتْ فغَدَتْ مِنْهَا الكواكبُ تَخْجَلُ

تكمَّلْتِ بالأضواءِ حُسناً وقد جلا ... رِياضَكِ من أيدي الطبيعةِ صَيْقَلُ

فهل أنتِ في دَوْرٍ محا نورُ علمِهِ ... دُجَى الجهلِ حتى تمَّ هذا التكمُّلُ

أمِ الفَلَكُ الأَعْلَى خطيبك والذي ... نراهُ من الأنوارِ مَهرٌ مُعَجَّلُ

أمِ المجتَلَى ذاتُ العمادِ تَمَثَّلَتْ ... عجائبها أمْ أنتِ أبهى وأجملُ

أمِ العالَمُ العُلوِيُّ أصبحَ قادماً ... إليكِ ولاسْتِقْبَالِهِ الكونُ مُقْبِلُ

---

(١) هذه القصيدة التي ألقيت في حديقة الأمة ترحيباً بسمو الأمير فيصل المعظم من قبل الأستاذ الفاضل الشيخ عبد القادر أفندي المبارك، أستاذ اللغة العربية في المدرسة السلطانية الأولى، وقد عنيت إدارة مجلة المدرسة بطبعها تذكاراً لقدوم أميرنا المحبوب (١٣٣٧و١٩١٩).

أمِ ارْتسمَ المجدُ الصَّريحُ مجسَّماً عَلَى الغُوطَةِ الغَنَّاءِ أم ذَا تَخَيُّلُ
أمِ العادلُ الفاروقُ عَادَ وحمزةٌ وحيدرة الكرار أم عادَ فَيْصَلُ
بَلَى فَيْصَلٌ نجلُ الحُسَيْنِ الذِي مَتى بَدَا ذُكِرَ المَجْدُ القدِيمُ المُؤَثلُ
من الهاشِميِّينَ الذين همو همو إذا غابَ منهم فيصل قام فيصلُ[١]
من العلويينَ الغَطَارِفَةِ الأُلَى[٢] على فضلهم نَصَّ الكتابُ المُنَزَّلُ
إلى الوَطَنِ المحبوبِ عادَ مُجيرُهُ فَخَفَّ إلى اسْتِقبالِهِ الشَّعْبُ يَحْفِلُ
وراحَ يُحَيِّي مُنْقِذَ الوَطنِ الذي يَحُفُّ به مِنْ أَعْيُنِ اللهِ جَحْفَلُ
فَيَا مَرْحَباً بالسُّؤدد المَحْضِ قادِماً لهُ القلْبُ قبْلَ القَصْرِ مأوىً ومَنْزِلُ
وأهلاً بمَنْ ما زال يَسْعَى لِشَعْبِهِ لِيُبْلِغَهُ مَا يَرْتَجي وَيؤَمِّلُ
دَرَى أنَّ الاستقلالَ إنْ يَحْيَى طابتِ الـ ـحياةُ وإنْ لَمْ يَحْيَ فالْمَوْتُ أفْضَلُ
فَنَادَى بِهِ في الْغَرْبِ بِالسِّلْمِ والْحِجَى وفي الشَّرْقِ بالصَّمْصَامِ يقْضِي ويَعْدِلُ
وَلَبَّاهُ صَوْتُ الشَّعْبِ يهتفُ فليعش لنا مُلك الاستقلالِ وليَحْيَ فيصلُ

❁ ❁ ❁

أيَا وطناً في قَلْبِنَا لَكَ مَنْزِلٌ نَقيكَ الرَّدَى إنْ غَصَّ بالجيْشِ مأزِل[٣]
بشَعْبِكَ هذا الدَّوْرُ قد جدَّ جدُّهُ ليُنْهِضَهُ من بَعْدِ مَا كَانَ يَهْزِلُ
بآلِ الحُسَيْنِ استرجع اليوم ما مضى من الشَّرَفِ السَّامي فَمَجْدُك أوَّلُ
وكَمْ لَكَ في صُحْف التَّمَدُّنِ آيَةٌ حَدِيثُ مَزَايَا عَاشِقِيهَا مُسَلْسَلُ
لماضيكَ في تارِيخِهِ مَدَنِيَّةٌ يلَذُّ بمَعْنَاهَا البَدِيعِ التَّغَزُّلُ
وإنَّا لَنَرْجُو أَنْ يَعُودَ الَّذِي مَضَى إلَيْكَ فَمنْ شَأنِ الزَّمَانِ التَّحَوُّلُ

---

(١) الفيصل هنا بمعنى الحكم الذي يفصل القضايا.

(٢) الألى: هنا بمعنى الذين.

(٣) المأزل: المضيق كالمأزق والمأزم وزناً ومعنى.

وإنَّ تَبَاشِيرَ النُّهُوضِ إلى العُلاَ ... بأَخلاقِنَا فيها لنا مُتَعَلَّلُ[1]

فلا تَيْأَسَنْ مَهْمَا نَبَا الدَّهرُ واعتدى ... على قومِكَ الأَمْجَادِ فَالدَّهْرُ حُوّلُ

وكَمْ مِنْ عَزِيزِ النَّفْسِ يُرْخِصُ رُوحَهُ ... لِكَيْ يَدْرَأَ الْخَطْبَ الَّذِي مِنْهُ تَوْجلُ

أَلَمْ تَرَ كَمْ صَدَّ الخطوبَ مُنَوّهاً ... بعزِّكَ في شِبْهِ الْجَزِيرةِ فَيْصَلُ

رأى في مَغَانِيكَ الْجَمَالَ مُنْكَّراً ... يغادر دَمع الشعب كالسيلِ يهمل

رأى يَدَ الاستبدادِ تَعْبَثُ قَسْوَةً ... بقَوْمٍ للاسْتِقْلاَلِ فِيهِمْ تأَهُّلُ

ورَوْضَتَكَ المعْطارَ تُخْضَبُ بالدِّمَا ... وقَدْ غَالَهَا من حادِثِ الدَّهْرِ مِنْجَلُ

فأشْفَقَ أَنْ تَفْنَى أزَاهيرُكَ الَّتي ... بَكَى رَوْضَهَا الْبَاكُونَ إذْ كَادَ يُمْحِلُ

ولَمْ يَنْسَ في هذِي المدينَةِ وَقْعَةً ... إلى اللهِ مِنْهَا المشْتكى والمُعَوَّلُ

هُنَالِكَ هَاجَتْ بابْنِ مَكَّةَ نَخْوَةٌ ... أهاجَتْ أَخَا لَيْثِ الشَّرَى وهو مُشْبِلُ

فَقَالَ لرهْطٍ أغْضَبُوا اللهَ والورى ... ألا أيُّها الرَّهْطُ اللِّئامُ ألا انْجَلُوا

وَشَبَّ لدَفْعِ الضَّيْمِ هَيْجَاءَ تَلْتَظِي ... إذا بَاخَ مِنهَا مِرْجَلٌ جاشَ مِرْجَلُ[2]

أَدَارَ رَحاهَا والْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا ... وحَوْضُ الْمَنَايَا للْفَوَارِسِ مَنْهَلُ

وأَلقَى على شبهِ الْجَزِيرَةِ خُطْبَةً ... تُذَكِّرُها مَا كَانَتِ العُرْبُ تفْعَلُ

وأبْدَعَ لَمَّا كَانَ يَخْطُبُ للْوَغَى ... خِطَاباً إلَيْهِ فِتْيَةُ العُرْبِ اقْبَلُوا

دَوَى وهْوَ في أرْضِ الحِجَازِ صَدَاهُ في ... فُرُوقَ فَأَضْحَى عرْشها يَتَزَلْزَلُ

فَيَا لِصَدَى ذاكَ الزَّئِيرِ الَّذي بِهِ ... تَمَزَّقَ قَلْبٌ عَنْ نِدَا الحَقِّ مُقْفَلُ

رَأَى النُّصحَ لَمْ يَنْجَعْ فَجَاءَ بِخُطْبَةٍ ... صَوَاعِقُها كالشُّهْبِ تَنْقَضُّ مِنْ عَلُ

وَتَيَّارُهَا الزَّخارُ يَقْذِفُ بالدِّما ... وطَيَّارُهَا الرّجّامُ يَعْلُو ويَسْفُلُ

فدَارَتْ وأَشْبَالُ الْحُسَيْنِ حُمَاتُهَا ... وأَبْطَالُهَا عُرْبٌ وَمَكَّةُ مَوْئِلُ

---

(١) متعلل: تسلي.

(٢) إذا خمدت نارها في جهة تأججت في جهة أخرى.

وقَدْ فَازَ جَيْشٌ فِيهِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... عَلِيٌّ وَعَبْدُ اللهِ زَيْدٌ وَفَيْصَلُ

فآَبَ قَرِيرَ الْعَينِ في الشَّرْقِ ظَافِراً ... يَؤُمُّ حمَى الغَرْبِ الأَمِيرُ المُبَجَّلُ

وَلاَقَى رَعَاهُ اللهُ كُلَّ حَفَاوَةٍ ... تَلِيقُ بِأَمْثَالِ الأَمِيرِ وَتَجْمُلُ

وَمَثَّلَ وَهْوَ الكُفْؤُ دَامَ عَلاَؤُهُ ... بنى شَعْبِهِ السَّامِي فَنِعْمَ المُمَثِّلُ

بمُؤتَمَرٍ لَمْ يَشْهَدِ الْخَلْقُ مِثْلَهُ ... تَرى الدَّهْرَ فيهِ مُصْغِياً يَتَأَمَّلُ

تَرَى فيه أَقْطَابَ الشُّعُوبِ تَجَمَّعُوا ... لِيَحْمِلَ كُلٌّ مِنْهُ مَا يُتَحَمَّلُ

وَمِنْهُ لَنَا أَهْدَى الأمِيرُ بِشَارَةً ... سَيَبْقَى لها ذِكْرٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ

عَلَى أَنَّ في إخلاصِهِ وَوَفَائِهِ ... لنا خيرُ بُشْرَى تُرْتَجَى وتُؤَمَّلُ

وَلاَ شَكَّ في إخْلاَصِهِ لِبِلاَدِهِ ... فَمَعْنَى الوَفَا في قَلْبِهِ مُتَأَصِّلُ

فَيَا عَرَبِيُّ اهْنَأْ وَعِشْ مُتَفَيِّئاً ... بِرَايَةِ الاسْتِقْلاَلِ وَلْيَحْيَ فَيْصَلُ(١)



(١) تذكار يوم قدومه إلى دمشق، السبت في (٣) شعبان سنة (١٣٣٧) و(٣) مايس سنة (١٩١٩).

إحدى العبر بين البشر

أنشودةُ الأَلباب في عالَمِ الأسباب[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِمَ يَا مَهيبَ الْجَدِّ هِيبَ الرَّاقي[2]   أَلِلحُسْنِ مَنْظَرِ ثَوْبِهِ البَرَّاقِ
لِمَ سَادَكَ الرَّاقي سِيَادَةَ قَاهِرٍ   طَبٌّ[3] بِمَا تُلْفِيهِ[4] غَيْرَ مُطَاقِ[5]
أَلِلحُسْنِ مَنْظَرِ ثَوْبِهِ طَارَ الَّذِي   حَذَقَ[6] امْتِطَاءَ[7] الرِّيحِ كُلَّ حِذَاقِ

(١) وهي قصيدة اجتماعية أنشأها وشرح بعض كلماتها عبد القادر المبارك ابن محمد المبارك، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وأحد أساتذة المدرسة التجهيزية ودار المعلمين، الطبعة الأولى، عني بطبعها ملتزمها السيد محمد توفيق الحافظ، وتطلب من مكتبته في المسكية غربي الجامع الأموي، وحقوق إعادة طبعها محفوظة لمنشئها، مطبعة الترقي غرة محرم سنة (١٣٤٣).

(٢) الراقي: من رقي أي صعد وعلا، ومن رقا أي ارتفع في طيرانه.

(٣) طب: أي ماهر حاذق خبير.

(٤) تلفيه مضارع ألفاه أي وجده.

(٥) مطاق: مستطاع مقدور عليه.

(٦) حذق الشيء: أتقنه وبرع في معرفته، ومن مصادره الحذاق.

(٧) امتطاء الريح: ركوبها.

لِمَ لَمْ يَطِرْ مَنْ أَشْبَهَ الطَّاوُوسَ في حُبِّ الْفَخَارِ بِلُبْسِ أَبْهَى طَاقِ[١]
لِمَ أَدْرَكَ الْعَلْيَاءَ ذَاكَ وَضَلَّ ذَا نَهْجَ الْجُدُودِ فَحَلَّ في الأَعْمَاقِ
لِمَ ذَاكَ عُدَّ الْعَبْقَرِيَّ فَطَانَةً وابْنُ الذَّكَاءِ مَظِنَّةَ اسْتِحْمَاقِ
لِمَ ذَاكَ لِلْقُطْبِ اهْتَدَى وابْنُ الهُدى حَيْرَانُ بَيْنَ رُبىً وَبَيْنَ سَوَاقِي
لِمَ صَارَ ذَاكَ مُفَوَّهاً[٢] وَلِسَانُ ذَا في حَالَةِ الْمَوْؤُودِ[٣] بَيْنَ طِبَاقِ
لِمَ أَصْبَحَا مُتَبَايِنَيْنِ تَبَايُناً[٤] أَنْسَاكَ مَا لَهُمَا مِنَ الأَعْرَاقِ[٥]
لِمَ ذَاكَ فِي الجَوِّ اسْتَقَلَّ[٦] وَذَا عَنِ الْـ كُرْسِيِّ أُزْلِقَ أَيَّمَا إِزْلاَقِ
لِمَ ذَاكَ فَاقَ الحَيَّ مُغْتَبِطاً وَذَا مُذْ عَاشَ ذَاقَ الْمَوْتَ شَرَّ مَذَاقِ
لِمَ ذَاكَ خُصِّصَ بالثَّرَاءِ وَشَاقَ ذَا بَطْنُ الثَّرَى مِنْ شِدَّةِ الإِمْلاقِ
لِمَ ذَاكَ رَاعى الاقْتِصَادَ وَذَا عَصَى أَمْرَيْهِ في كَسْبٍ وَفي إِنْفَاقِ
لِمَ ذَاكَ نَالَ كَمَا اشْتَهَى غُنْماً وَذَا مَا نَالَ إِلاَّ أَسْوَأَ الإِخْفَاقِ[٧]
لِمَ ذَاكَ أَصْمَى إِذْ رَمَى وَسِهَامُ ذَا فُجِعَتْ بِأَنْصُلِهَا[٨] وبِالأَفْوَاقِ[٩]
لِمَ طَعْمُ حَنْظَلِ ذَاكَ طَابَ وأَصْبَحَتْ نَخَلاَتُ هَذَا مُرَّةَ الأَعْذَاقِ[١٠]

---

(١) طاق: ثوب.

(٢) مفوه: منطيق.

(٣) الموؤود: المدفون وهو حي.

(٤) تبايناً: تباعداً.

(٥) الأعراق: الأصول.

(٦) استقل الطائر: ارتفع.

(٧) الإخفاق: الخيبة.

(٨) أنصل السهام: حدائد أعاليها.

(٩) أفواقها: فروضها في مواضع الأوتار منها.

(١٠) الأعذاق: عناقيد التمر.

لِمَ ذَاكَ أَنْفَقَ كُلَّ سِلْعَتِهِ[١] وَذَا لَمْ يَحْظَ غَيْرُ نِفَاقِهِ[٢] بِنِفَاقِ[٣]

لِمَ ذَاكَ رَوَّجَ سُوقَ صَاحِبِهِ وَذَا لأَخِيهِ هَيَّأَ أَكْسَدَ الأَسْوَاقِ

لِمَ ذَاكَ وَاسَى بائِسِيه وَقَلْبُ ذَا كالصَّخْرِ بَلْ أَنْأَى[٤] عَنِ الإشْفَاقِ

لِمَ ذَاكَ جُنَّ بِقَوْمِهِ وَبِلاَدِهِ عِشْقاً وَذَا كَلٌّ[٥] على الْعُشَّاقِ

لِمَ ذَاكَ وَافَقَ شَعْبَهُ فَأَفَادَهُ عِزّاً وهذا ضِدُّ كُلِّ وِفَاقِ

لِمَ ذَاكَ أَمْسى عَيْنَ رُفْقَتِهِ وَذَا مَعَ أَهْلِهِ كَالشَّوْكِ في الأَحْدَاقِ

لِمَ فُرِّجَتْ كُرُبَاتُ ذَاكَ وَكَرْبُ ذَا مَا زَالَ مِنْهُ كآخِذٍ بِخِنَاقِ

لِمَ أَسْعَفَتْ ذَاكَ الصُّرُوفُ وَلَمْ يَجِدْ ذَا مُسْعِفاً إلاَّ جَرِيحَ مَآقي

لِمَ رَافَقَتْ ذَاكَ الجُدُودُ[٦] وَغَادَرَتْ هَذَا على خَطَرٍ بِغَيْرِ رِفَاقِ

لِمَ ذَاكَ رُفِّهَ[٧] في الْفَلاَةِ وَذَا قَضَى[٨] عَطَشاً بِجَانِبِ نَهْرِهِ الدَّفَّاقِ

يا طالباً عِرْفَانَ ما أَفْضَى[٩] إلى حَالَيْ كِلاَ هذَا وذَاكَ الرَّاقي

سَلْ مَا أَعَدَّا مِنْ صُنُوفِ قُوىً وَمَا عَبَأا[١٠] مِنَ الأَوْزَارِ والأَوْسَاقِ

---

(١) سلعته: بضاعته.

(٢) نفاق بالكسر مصدر نافق ينافق وجمع نفقة.

(٣) النفاق: بالفتح كالرواج وزناً ومعنى.

(٤) أنأى: أبعد.

(٥) كلٌّ: ثقيل لا ينشط لعمل ولا ينبعث في شأن.

(٦) الجدود: الحظوظ.

(٧) رفهه ترفيهاً: أرغد عيشه وأكثر رزقه، وأسبغ عليه النعم، ومكنه من التمتع بها، ورفه الإبل ترفيهاً مكنها من ورود الماء لتشرب كلما أرادت.

(٨) قضى: مات.

(٩) أفضى إليه: وصل.

(١٠) عبأ المتاع: وضع بعضه فوق بعض، وعبأهُ: هيأهُ.

أَوَ لَيْسَ في الْقِسْطَاسِ بَيْنَهُمَا كَمَا ... بَيْنَ الْجِبَالِ وَبَيْنَ بِضْعِ أَوَاقِي
أَوَ لَيْسَ بَيْنَ مَغَبَّتَيْ عَمَلَيْهِمَا ... أَقْصَى مَدىً مَعَهُ اسْتَحَالَ تَلاَقِي
سَلْ سُنَّةَ اللهِ الَّتي مَنْ يَعْصِهَا ... تُؤْذِنْ سَعَادَتُهُ بِطُولِ فِرَاقِ
سَلْهَا فَكُلُّ الْحَادِثَاتِ مُحَاطَةٌ ... مِنْ مُقْتَضَى أَحْكَامِهَا بِنِطَاقِ
سَلْهَا تَكُنْ مِنْ عَدْلِهَا بَبيانِهَا ... أَسْبَابَ مَا بِهِمَا عَلَى اسْتِيثَاقِ[1]
مَنْ مِنْهُمَا في دَرْسِ فَنٍّ وَاحِدٍ ... يَقْضِي جَمِيعَ الْعُمْرِ باسْتِغْرَاقِ
مَنْ مِنْهُمَا لِلْعِلْمِ وَالْعَلْيَا سَخَا ... بِالْمَالِ مِنْ ذَهَبٍ وَمِنْ أَوْرَاقِ[2]
أَوَ لَيْسَ بَيْنَ مَغَبَّتِي عَمَلَيْهِمَا ... أَقْصَى مَدىً مَعَهُ اسْتَحَالَ تَلاَقِي
دارَ الزَّمَانُ فَهَبَّ ذَاكَ وَعَبَّ ذَا ... مِنْ أَكْؤُسِ التَّنْوِيمِ كُلَّ دِهَاقِ
لِلسَّبْقِ ذَاكَ سَعَى وَذَا مَا هَمَّ أَنْ ... يَسْعَى لِسَبْقٍ لاَ وَلاَ لِلَحَاقِ
إنْ رَامَ أَمْراً ذَاكَ لاَزَمَهُ وَذَا ... إنْ لَجَّ في عَمَلٍ فَقَدْرَ فُوَاقِ[3]
ذَاكَ اشْتَرَى بِالرُّوحِ أَسْمَى رُتْبَةٍ ... هذا إلَيْهَا لَيْسَ بِالتَّوَّاقِ[4]
بَيْنَ القِفَارِ أَمَاهَ[5] ذَاكَ وَغَاضَ مِنْ ... إهْمَالِ هذا جَدْوَلُ الرُّسْتَاقِ[6]
ذاكَ اسْتَطَبَّ لِدَائِه بِطَبِيبِهِ ... وَمَرِيضُ هَذَا في يَدِ الحَلاَّقِ
آخى دُهَاةَ عِدَاهُ ذَاكَ وَقَالَ ذَا ... لا أُلْفِ نَجْدِيّاً أَخاً لِعِرَاقِي
لَمْ تَكْفِ سُفْنُ الْجَوِّ ذَاكَ لأَنَّهَا ... دُونَ النُّجُومِ وَذَا اكْتَفى بِنِيَاقِ

(١) كان بالشهود من دينه على استيثاق: أي على عمل فيه حزم واحتياط وضمان للمطلوب.
(٢) أوراق جمع ورق: وهو الفضة.
(٣) قدر فواق: أي زمناً قصيراً جداً، وأصل ذلك أن الناقة تحلب في اليوم بضع مرات، وما بين كل حلبتين هو الفواق.
(٤) تواق، من تاق: أي اشتاق.
(٥) أماه: أنبط المياه.
(٦) جدول الرستاق: نهر المزرعة.

لَـمْ يَـرْضَ ذَاكَ سِـوَى الـمَـجَـرَّةِ مَـوْرِداً وابْـنُ الْـبُـحُـورِ[١] اغْـتَـرَّ بِـالـرَّقْـرَاقِ

طَـلَـبَ الأشِـعَّـةَ ذَاكَ إِذْ مَـلَّ الـدُّجَـى وابْنُ الْبُدُورِ[٢] اخْتَارَ شَرَّ مِحَاقِ[٣]

ذاكَ اسْـتَـضَـاءَ بِـنُـورِ أَنْـجُـمِ أُمَّـةٍ سَـارَ ابْـنُـهَـا هـذَا عَـلَـى إغْـسَـاقِ[٤]

بـالـدَّرْسِ رَشَّـحَ ذَاكَ لِـلْـمُـلْـكِ ابْـنَـهُ وَمِـنِ ابْـنِ هَـذَا ضَـجَّ كُـلُّ زُقَـاقِ

ذَاكَ ابْـتَـغَـى ثَـمَـرَ الْـعُـلُـومِ وَذَا اكْـتَـفَـى بِـالْـحِـبْـرِ والأَقْـلاَمِ والأَوْرَاقِ

ذَاكَ ابْـتَـنَـى دُورَ الْـعُـلُـومِ وَذَا مَـحَـا مِـنْـهَـا الْـقَـدِيـمَ بِـهـذِهِ الآفَـاقِ

فَـتَـلَـقَّـيَـا حُـكْـمِـيْ خَـبِـيـرٍ عَـادِلٍ فـي قِـسْـمَـةِ الـدَّرَجَـاتِ والأَرْزاقِ

وهَـلِ اسْـتَـوَى أَحَـدٌ عَـلَـى رُتَـبِ الْـعُـلا عَـبَـثـاً بِـلاَ سَـبَـبٍ ولاَ اسْـتِـحْـقَـاقِ

لاَ، (لَـيْـسَ لـلإِنْـسَـانِ إلاَّ مَـا سَـعَـى) مِـنْ كُـلِّ مَـا لاَقَـاهُ أَوْ سَـيُـلاَقِـي

أَعْـدِلْ بِـتِـلْـكَ قَـضِـيَّـةً يَـقْـضِـي بِـهَـا مَـنْ جَـلَّ عَـنْ ظُـلْـمٍ وَعَـنْ إرْهَـاقِ[٥]

إِنَّـا إِذَنْ رَهْـنٌ بِـمَـسْـعَـانَـا وَقَـدْ أَحْـصَـاهُ أَعْـدَلُ كَـاتِـبِـي فُـنْـدَاقِ[٦]

فَـدَعِ احْـتِـجَـاجَـكَ بِـالـقَـضَـا يَـا ذَا فَـمَـا بَـخِـلَـتْ عَـلَـى أَحَـدٍ يَـدُ الـرَّزَّاقِ

وَبِـسُـنَّـةِ اللهِ اسْـتَـبِـنْ رُشْـدَيْـكَ فِـي نَـهْـجِ الـرُّقِـيِّ وَنَـهْـجِ الاسْـتِـرْزَاقِ

وَتَـحَـرَّ مَـعْـرِفَـةَ الْـحَـقِـيـقَـةِ وارْعَـهَـا كَـرِعَـايَـةِ الْـعَـرَبِـيِّ لِـلْـمِـيـثَـاقِ

❁ ❁ ❁

فَـالـطَّـائِـرُونَ بِـعِـلْـمِـهِـمْ غَـلَـبُـوكَ لا بِـقُـوَى الْـعَـصَـا والـسَّـيْـفِ والـمِـزْرَاقِ

---

(١) البحور مجازاً: كبار العلماء والكرماء.

(٢) البدور مجازاً: رؤساء القوم وساداتهم كالكواكب.

(٣) المحاق: اختفاء القمر وذهاب نوره كالسرار.

(٤) الإغساق: الإظلام.

(٥) الإرهاق: الإعسار والتكليف بما لا يطاق.

(٦) الفنداق: صحيفة الحساب.

هَبُّوا لِيَحْتَلُّوا كَوَاكِبَ آنَقَتْ[(١)] مَنْ لَيْسَ أَعْمَى غَايَةَ الإِينَاقِ
وَلِيُوثِقُوا أَسْبَابَ مُلْكِ عُرُوشِهِمْ بِالْقُطْبِ مِنْهَا مُحْكَمَ الإِيْثَاقِ
وَجَدُوا شِبَاكَ[(٢)] الأَرْضِ شَتَّى رُبَّمَا جَعَلَتْهُمُو كالْبَهْمِ[(٣)] في الأَرْبَاقِ[(٤)]
فاخْرَنْبَقُوا[(٥)] دَهْراً يَرِيشُونَ[(٦)] الَّتي طَارُوا بِهَا مِنْ بَعْدِ الاخْرِنْبَاقِ
واسْتَنْطَقُوهَا كَيْ تُرَدِّدَ وَعْظَهَا في الْجَوِّ بَلْ وَعَظَتْ بِلاَ اسْتِنْطَاقِ
صَعِدَتْ مَنَابِرَ مِنْ سَحَائِبَ فَوْقَهَا كَالْفَحْلِ[(٧)] صَالَتْ وهْيَ ذَاتُ بُعَاقِ[(٨)]
هَدَرَتْ عَلَى رَغْمِ الْجُمُودِ بَدَاهَةً تَهْدَارَ لاَ دَهِشٍ وَلاَ مَلاَّقِ[(٩)]
تُغْنِي شَقَاشِقُهَا عَنِ الإِيْجَازِ وَالْـ إِطْنَابِ والتَّبْلِيغِ[(١٠)] والإِغْرَاقِ[(١١)]

---

(١) آنقت: أعجبت.

(٢) الشباك: آلات الصيد كالحبائل والأشراك والفخاخ.

(٣) البهم: صغار الضأن والمعزى.

(٤) الأرباق: حبال فيها عرى تشد بها البهم.

(٥) اخرنبق: لبد بالأرض متربصاً فرصة يثب فيها لقتل عدو أو ختل صيد أو نحوهما، وفي المثل: مخرنبق لِيَنباع: يضرب في شأن من يطرق ويطيل الصمت كالمتماوت ليحسب مغفَّلاً، وهو داهية.

(٦) راشها: ركب عليها الريش، والمراد: وضع لها ما تطير به.

(٧) الفحل: البعير، ويشبه به الخطيب البليغ.

(٨) البعاق: الصوت الشديد.

(٩) الملاق: الذي يبالغ في إظهار المودة واللطف، وضميره يخالف لسانه.

(١٠) التبليغ في فن البديع: اسم للمبالغة المقبولة عقلاً وعادة، كقول امرئ القيس:

فعادى عداءً بين ثور ونعجة دراكاً ولم ينضح بماءٍ فيغسل

(١١) الإغراق: اسم للمبالغة المقبولة عقلاً لا عادة، ومثلوا له بقول الشاعر:

ونكرِمُ جارَنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

طَــارَتْ تَــعِــجُّ[١] بِــشَــارَةً وَنِــذَارَةً بِــالْــوَعْــدِ والإِرْعَــادِ[٢] والإِبْــرَاقِ
تِـلْـكَ الْـغَـرِيـبَـةُ أَيْـقَـظَـتْـكَ وَكَـمْ أَخٍ لَــكَ مِــنْــهُ شَــرٌّ مُــنَــوِّمٍ مَــذَّاقِ[٣]
وَعَـظَـتْـكَ طَـائِـرَةً وَوَاقِـعَـةً فَـمَـا لَكَ لَسْتَ تَسْمَعُ غَيرَ غَاقٍ غَاقِ[٤]
فَاسْمَعْ وَمَجِّدْ مَنْ قَضى في خَلْقِهِ بِـالْـعَـدْلِ فـي الإِسْـكَـاتِ والإِنْـطَـاقِ
هَـاتِـيـكَ قَـائِـلَـة بِـلَـحْـنٍ[٥] دَوِيِّـهَـا قَوْلَ الخَطِيبِ الصَّيِّتِ[٦] المِصْلاَقِ[٧]
طَـارَ الْـجَـمَـادُ فَـمَـا لِـهَـذَا لَـمْ يَـطِـرْ وَسِوَى الأَذى في الأَرْضِ مَا هُوَ لاَقِي
وَمَـوَاطِـنُ الأَرْوَاحِ تَـدْعُـو الـنَّـاسَ كَـيْ يَــتَــرَفَّــعُــوا عَــنْ هَــذِهِ الآفَــاقِ
وَمَـنِ ابْـتَـغَـى رُتَـبَ الـسَّـعَـادَةِ وَالْـعُـلاَ جَـعَـلَ الْـمَـسَـاعِـيَ والْـعُـلُـومَ مَـرَاقِـي[٨]
وَأَبُـو الـسَّـعَـادَةِ كُـلِّـهَـا الْـعِـلْـمُ الَّـذِي يَـحْـبُـو عَـبِـيـدَ الـنَّـفْـسِ بـالإِعْـتَـاقِ
وَأَبُـو الـشَّـقَـاءِ بِـأَسْـرِهِ الْـجَـهْـلُ الَّـذِي هُــــوَ آفَــــةُ الأَفْــــهَــــامِ وَالأَذْوَاقِ
وَلَـكَـمْ عَـلاَ سَـعْـيـاً بَـنُـو قَـزَمٍ[٩] وَكَـمْ حُـرِمَ الْـعُـلاَ كَـسَـلاً بَـنُـو عِـمْـلاَقِ[١٠]

❁ ❁ ❁

---

(١) تعج: تصيح بصوت عالٍ.
(٢) الإرعاد والإبراق: التهديد.
(٣) المذاق: الكذاب، ومن يظهر الود وهو غير مخلص.
(٤) غاق غاق: حكاية صوت الغراب، والمراد: ما لك لا تسمع إلا ما جرت عادة الناس اليوم بسماعه مع عدم الاعتبار.
(٥) لحن القول: ما كان معناه دقيقاً كالتورية والتلميح والتعريض والألغاز والتعمية، وإذا رأيتني بين أعدائي فالحن لي: أي خاطبني بما أفهمه وحدي.
(٦) صيت: عالي الصوت.
(٧) مصلاق: مصقع أي بليغ مُفْلِق.
(٨) مراقي: درجات.
(٩) القزم القصير الصغير الجسم خلقة، وهو مذموم عند العرب لأنَّه قلّما يكون فارساً.
(١٠) العملاق الطويل، والعرب تمدح بالطول، لأنَّه وصف غالب في الفرسان، وهو أحد =

وَالْمَالُ لاَ يَسْمُو بِذِي كَسَلٍ وَلَوْ كانَ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ أَوْ إِسْحَاقِ
كَالرِّيشِ لاَ يُجْدِي طُيُوراً أَصْلُهَا حُرٌّ إِذَا فَقَدَتْ خِصَالَ عِتَاقِ[١]
فَارْبَأْ[٢] بِنَفْسِكَ عَنْ غِنى كَسْلاَنَ ذِي جَهْلٍ يُذَلِّلُ أَشْرَفَ الأَعْنَاقِ
ذَاكَ الَّذِي يُمْسِي وَيُصْبِحُ بَاسِطاً فِي كُلِّ مُخْزِيَةٍ يَدَيْ مِنْفَاقِ[٣]
لِلشَّرِّ مِفْتَاحاً تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ لِلْخَيْرَ، مُنْذُ سَعَى، سِوى مِغْلاَقِ[٤]
لِلْجَهْلِ يَفْتَحُ بَابَ مَنْزِلِهِ كَمَا يُؤْذِي وُجُوهَ الْعِلْمِ بِالإِغْلاَقِ
عَادَى الْفَضَائِلَ مَانِعاً مِنْهَا ابْنَهُ لِيَصِيرَ وَالِدَ أَجْهَلِ الفُسَّاقِ
أُمُّ الْخَبَائِثِ مَاؤُهُ مَعَ أَنَّهَا إِنْ أُدْمِنَتْ كَالنَّارِ فِي الإِحْرَاقِ
قَدْ عَقَّ آدَمَ إِذْ أَبَى أَنْ يَنْتَمِي صِفَةً إِلَيْهِ وَلَمْ يُبَالِ عَقَاقِ[٥]
وَبِنَسْلِهِ الْمِفْضَالِ أَلْحَقَ نَفْسَهُ والْجِسْمُ حُجَّتُهُ عَلَى الإِلْحَاقِ
وَالْجِسْمُ طِينٌ لاَ يُشَرِّفُ مُلْصَقاً[٦] لَمْ يَحْوِ غَيْرَ عَلاَئِمِ الإِلْصَاقِ
يَقْضِي الْحَيَاةَ كَسَائِحٍ أَعْشَى عَلَى عَشْوَاءَ سَيِّئَةِ الطِّبَاعِ نِزَاقِ[٧]

= الأسماء التي كانت تسمي بها أبناءها تفاؤلاً بنبوغهم في الفروسية، وبه سمي أبو العمالقة والفراعنة والجبابرة الذين كانوا بمصر والشام، وهم من بقايا قوم عاد إحدى قبائل العرب العاربة.

(١) عتاق الطير: خيارها وهي جوارحها.

(٢) ربأ بنفسه عن كذا: ترفع وتنزه.

(٣) المِنْفَاق: الكثير الإنفاق.

(٤) مفتاح للشرِّ: أي دنيء ضرار، مغلاق للخير: حَسود شحيح.

(٥) عقاق بالبناء على كسر اسم للعقوق: وهو عصيان الولد لأمه أو أبيه.

(٦) الملصق: المنسوب إلى غير قومه كالملحق والدعي والزنيم.

(٧) النزاق والمزاق بالنون والميم: الناقة الخفيفة الحركة الشديدة السرعة التي يكاد يتمزق جلدها من نزقها، أي خفتها وطيشها.

عَسَفَتْ بِهِ أَرْضاً تَنَاذَرَ صِلَّهَا ... أَرْقَى نِطَاسِيٍّ وأَتْقَى رَاقِي
أَرْضاً سِوَي الطَّيَّارِ لاَ يَنْجُو بِهَا ... مِنْ أَسْهُمٍ تَرْمِيهِ أَوْ أَوْهَاقِ[١]
كَشَرَتْ عَنِ الأَنْيَابِ مِنْ أَوْعَارِهَا ... وَالْهَاوِيَاتُ فَوَاغِرُ الأَشْدَاقِ
نَاغَتْ رَوَاسِيهَا السَّمَاءَ مُحَاطَةً ... بِهُوى مَسَايِلَ كَالبِحَارِ عِمَاقِ[٢]
لَعِبَتْ بِعَاسِفِهَا سَوَافِيها[٣] وَقَدْ ... أَلْقَتْ عَلَيْهِ السُّحْبُ بِالأَرْوَاقِ[٤]
فِي رِحْلَةٍ فَوْضَى بِلاَ زَادٍ وَلاَ ... حَادٍ وَلاَ هَادٍ وَلاَ سَوَّاقِ
إِنْ حَاوَلَ التَّشْرِيقَ ضَلَّ مُغَرِّباً ... فَيَحُلُّ مِصْرَ بِنِيَّةِ الإِعْرَاقِ[٥]
مَا زَالَ بِالإِصْحَارِ وَالإِبْحَارِ في ... خَطَرَيْنِ مِنْ تِيهٍ وَمِنْ إِغْرَاقِ
عَجَزَتْ ضَحَايَا الْجَهْلِ أَنْ تَنْأَى بِهِ[٦] ... عَنْ صَوْبِ[٧] سَهْمِ غَرِيمِهَا الرَّشَّاقِ
لَمْ يَسْتَفِقْ حَتَّى قَضى مُتَجَرِّعاً ... فِي آخِرِ السَّكَرَاتِ كأْسَ حَلاَقِ[٨]
وَإِذَا قَتِيلُ الْعِلْمِ أُدْرِكَ ثَأْرُهُ ... فَصَدى قَتِيلِ الْجَهْلِ أَخْيَبُ زَاقِي[٩]

❁ ❁ ❁

(١) الأوهاق: حبال فيها أناشيط ترمى في عنق الدابة أو الإنسان ويوهق بها، أي يقيد ويحبس.

(٢) عماق جمع عميق.

(٣) السوافي: الرياح الشديدة التي تحمل التراب وتذريه.

(٤) ألقى السحابُ بأرواقه على الأرض: أي أمطر عليها بجميع ما فيه من المياه.

(٥) الإعراق: الذهاب إلى العراق.

(٦) نأى به عن كذا أبعده.

(٧) الصوب: الجهة.

(٨) حلاق: من أسماء الموت، لأنه يحلق الأحياء كما يحلق الموسى الشعر.

(٩) أخيب زاقي: أخسر صائح، والصدى من طيور الليل كالهامة والضُّوَع، ويزعم عرب الجاهلية أن روح القتيل تصير صدى، وتزقو على قبره حتى ينتقم له بأخذ ثأره، وإنما راج ذلك الزعم بينهم رغبة في التحريض على الانتقام، والمراد هنا: من خيبة ذلك الصدى ذهاب دم القتيل هدراً

كَـمْ أُمَّـةٍ عَـثَـرَتْ عِـثَـاراً دَلَّـنَـا أَنَّ احْتِمَالَ الْجَهْلِ غَيْرُ مُطَاقِ[١]
وَإِذَا اسْتَرَقَّ[٢] الأَنْفُسَ الْجَهْلُ الَّذِي يُعْمِي الْبَصِيْرَةَ لَمْ تَفُزْ بِعَتَاقِ[٣]
فَعَبِيدُ ذَاكَ الْجَهْلِ لَنْ يَتَحَرَّرُوا مـنَّـاً وَلاَ بِـفِـدًى وَلاَ بِـإِبَـاقِ[٤]
غَـيْـرُ الـتَّـعَـلُّـمِ لاَ يَـفُـكُّ مُـقَـيَّـداً مِـنْ جَـهْـلِـهِ الأَعْـمَـى بِـشَـرِّ وَثَـاقِ

❁ ❁ ❁

بِالْعِلْمِ عَالِجْ دَاءَ شَعْبِكَ يَا فَتى رِفْقاً بِأَرْوَاحٍ بَلَغْنَ تَرَاقِي[٥]
فَالْعِلْمُ رَوْضٌ عَرْفُهُ[٦] يَشْفِي وَفِي أَثْمَارِهِ أَزْكَى ثَرَاءٍ بَاقِي
حُرِّيَّةُ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ تَقِي الْفَتَى مَا لاَ يَلِيقُ بِهِ مِن اسْتِرْقَاقِ
وَسُلاَلَةُ الْمِنْجَابِ[٧] إِنْ هِيَ عُلِّمَتْ ضَمِنَتْ لِفَضْلِ الْعِلْمِ فَضْلَ خَلاَقِ[٨]
فَالْفَرْعُ نُسْخَةُ أَصْلِهِ وَلَقَلَّمَا يَهْتَمُّ بِالْعَلْيَا بَنُو مِحْمَاقِ[٩]
والأُمُّ تُرْضِعُ طِفْلَهَا الدَّرَّ الَّذِي هُوَ رَمْزُ مَا يَسْقِيهِ آخِرُ سَاقِي
تَكْسُوهُ بالأَخْلاَقِ أَبْقى حُلَّةٍ ليستْ تُصَابُ الدَّهْرَ بالإِخْلاَقِ[١٠]

---

(١) مطاق: مستطاع.
(٢) استرق: استعبد.
(٣) العتاق بالفتح: الحرية.
(٤) الإباق: فرار العبد من سيده.
(٥) جمع ترقوة: وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين.
(٦) العرف: الرائحة الطيبة كالنشر وزناً ومعنى.
(٧) سلالة المنجاب: ذرية التي تلد النجباء، أي أهل الكرم والمجد والشرف.
(٨) الخلاق: النصيب الوافر من الخير والصلاح والتقوى.
(٩) المحماق: والدة الحَمْقَى، أي السخفاء الطائشين.
(١٠) الإخلاق: مصدر أخلق الثوب إذا بلي.

وَلَـرُبَّ مُـرْضِـعَـةٍ سُـمُـومـاً مَـا لَـهَـا   في غَيْرِ كَأْسِ الْمَوْتِ مِنْ تِرْيَاقِ[١]

❁ ❁ ❁

فَعِنَايَةً بالنَّشْءِ يَا مَنْ هُنَّ[٢] فِي   وَطَـنٍ إِلَـى نَـسْـلِ الْـعُـلاَ مُـشْـتَـاقِ
هَاتِيكَ نَفْسُ الطِّفْلِ جَوًّاً خَالِياً   والأُمُّ والأَبُ آيَـتَـا إِشْـرَاقِ
فَلْيَلْقَ في أَبَوَيْهِ نِبْرَاسَيْ هُدىً   يُصْبِحْ غَدَاً مِنْ خِيرَةِ الْحُذَّاقِ
وَلْيَحْوِ في عَهْدِ الصِّبى أَسْمَى قُوًى   تَبْقَى إِلَى أَقْصَى مَدَى الأَرْمَاقِ[٣]

❁ ❁ ❁

أَوَ يَمْجُدُ الإِنْسَانُ إِنْ حُرِمَ الْقُوى   مُنْذُ الصِّبى، لاَ والْقَدِيم الْبَاقِي
لاَ والَّذِي جَعَلَ الطَّبِيعَةَ آيَةً   والدَّهْرَ يَوْمَيْ أَنْعُمٍ وَأَلاَقِي[٤]
والْعَقْلَ نَزَّاعاً[٥] إِلَى التَّفْكِيرِ في   سِرِّ الْوُجُودِ بِأَعْظَمِ الأَشْوَاقِ
لاَ مَجْدَ إِلاَّ بَعْدَ إِعْدَادِ الْقُوى   عَوْناً عَلَى الإِبْطَالِ والإِحْقَاقِ[٦]
فَهِي الَّتِي كَتَبَ الْقَضَاءُ لأَهْلِهَا   رُتَبَ الْمُلُوكِ وَأَسْهُمَ السُّبَّاقِ
وَلَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ مَا شَاؤُوهُ مِنْ   ثَمَرٍ وَمِنْ زَهَرٍ وَمِنْ أَوْرَاقِ

❁ ❁ ❁

---

(١) الترياق: دواء للسموم.
(٢) هن: ضمير المؤنثات الغائبات، أو فعل ماض متصل بنون الإناث، من هان يهون.
(٣) الأرماق، جمع رمق بفتحتين: وهو بقية الحياة وآخر القوة.
(٤) الألاقي: ما يلاقيه الإنسان من المصائب، واحدها ألقية بالضم، والتشديد على وزن أمنية وأغنية، وهي في الأصل أفعولة من اللقاء.
(٥) نزع إليه: حنَّ واشتاق.
(٦) الإبطال والإحقاق: محو الباطل وإثبات الحق.

وَالضَّعْفُ[١] لاَ يَدَ مُنْعِشٍ يَلْقَى وَلاَ ... فَمَ سَائِلٍ عَنْ سَائِلِ الآمَاقِ[٢]

وَالنَّاسُ نَحْوَ الْخَيْرِ بِالإِبْطَاءِ قَدْ ... عُرِفُوا وَنَحْوَ الشَّرِّ بِالإِعْنَاقِ[٣]

خَصُّوا الْقَوِيَّ بِرِفْقِهِمْ[٤] واسْتَبْدَلُوا[٥] ... مَعَ غَيْرِهِ الإِضْرَارَ بِالإِرْفَاقِ[٦]

فَمَنِ اسْتَغَاثَ بِهِمْ أُهِينَ وَلَمْ يُغَثْ ... إِلاَّ بِغُبَّرِ[٧] دَمْعِهِ الْمُهَرَاقِ

جَارُوا عَلَى الضُّعَفَاءِ حَتَّى أَحْدَقَتْ ... بِهِمُ الرَّزَايَا أَيَّمَا إِحْدَاقِ[٨]

❁ ❁ ❁

فَلْتَرْحَمِ الأُمُّ الْحَنُونُ صِغَارَهَا ... فَالْعَصْرُ عَصْرُ تَنَافُسٍ وَسِبَاقِ

وَالأَرْضُ مُذْ شَرِبَتْ دَمَ الْمَظْلُومِ[٩] لَمْ ... تَبْرَحْ مَجَالَ تَنَازُعٍ وَشِقَاقِ

صَارَتْ مَعَارِكَ[١٠] بِالْمَطَامِعِ أُوقِدَتْ ... فِيهَا مَعَامِعُ[١١] شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِ[١٢]

---

(١) الضعف: مصدر بمعنى الفاعل، أو يقال: ذو الضعف، فيكون مصدراً وبمعناه.

(٢) سائل عن سائل الآماق: باحث مستعلم عن ما في مجاري الدموع، والمراد بالبحث عنها البحث عن أسبابها للسعي في إزالتها.

(٣) الإعناق: الإسراع.

(٤) الرفق: اللطف، وحسن الصنيع، وجودة العمل.

(٥) استبدلوا الإضرار بالإرفاق: أي التزموا الإيذاء بدل النفع.

(٦) الإرفاق: مصدر أرفقته أي ترفقت به وأفدته ونفعته.

(٧) الغبر، بضم الغين المعجمة وفتح الباء المشددة: البقية.

(٨) الإحداق: الإحاطة، وجاء ثلاثياً أيضاً من الباب الثاني، ومنه: الحديقة، لأنَّ من شأنها أن يحيط بها جدار.

(٩) المظلوم: يراد هنا هابيل الذي قتله أخوه قابيل.

(١٠) المعارك: مواطن الحرب التي يزدحم فيها الأبطار للقتال والصراع.

(١١) المعامع: الحروب الشديدة.

(١٢) شمرت الحرب عن ساق: أي احتدمت واشتدت، وإنما أسند التشمير إلى الحرب على سبيل المجاز العقلي للمبالغة في وصف الحرب بالشدة، كقولهم: جد جده، وشعره شاعر.

وَضِعَافُنَا لَحْمٌ عَلَى وَضَمٍ[١] فَمَا ... هُوَ لَيْتَ شِعْرِي خَيْرُ حِصْنٍ وَاقِي

❁ ❁ ❁

لا شَكَّ في أَنَّ الَّذِي يَحْمِي الْعُلا ... وَيُعَدُّ خَيْرَ مَوَاهِبِ الْخَلاَّقِ

وَيَقِي النُّفُوسَ الشَّرَّ حَتَّى في الْوَغَى ... وَلَدى كِلاَ التَّقْييدِ والإِطْلاَقِ

هُوَ حُسْنُ أَخْلاَقٍ وَفَضْلُ صَدَاقَةٍ ... لاَ حُسْنُ أَثْوَابٍ وَفَضْلُ صَدَاقِ[٢]

لاَ قَلْبَ إِلاَّ وَهْوَ طَوْعاً خَاضِعٌ ... لِمَقَامِ رَبِّ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ

مَنْ يَرْعَهَا يَرْعَ الْحُقُوقَ جَمِيعَهَا ... وَيُعَدُّ أَوْفى النَّاسِ بالْمِيثَاقِ

وَمَنِ احْتَمَى بِحِمَى عَزِيزِ لِوَائِهَا ... فَقَدِ اسْتَظَلَّ بِظِلِّ خَيْرِ رِوَاقِ

تَحْمِي الرِّجَالَ إِذَا بِهَا اعْتَصَمُوا كَمَا ... تَحْمِي ذَوَاتِ الْحَلْيِ وَالأَطْوَاقِ

وَتَصُونُهُنَّ صِيَانَةَ الأَزْهَارِ فِي ... أَكْمَامِهَا وَالدُّرِّ في الأَحْقَاقِ[٣]

وَبِهَا ابْنُ يَعْرُبَ في شَبَابِ زَمَانِهِ ... جَلَّى فَفَازَ بِأَشْرَفِ الأَسْبَاقِ[٤]

وَبِهَا يَرَى الْوَطَنُ ابْنَهُ في غَابِهِ ... أَسَداً وَسُحْبَ الْخَيْرِ في إِغْدَاقِ[٥]

وَهِيَ السَّعَادَةُ لاَ سَعَادَةَ دُونَهَا ... في حُكْمِ أَهْلِ الرَّأْيِ بالإِطْبَاقِ[٦]

---

(١) الوضم: ما يوضع عليه اللحم خشباً كان أو حصيراً أو جلداً أو غير ذلك، وفي المثل: رب عين تدني الرجال من أكفانها، والجمال من أوضامها.

(٢) الصداق: المهر، وأصدق العروس عشرة دراهم: أي جعلها لها صداقاً.

(٣) الأحقاق: جمع حق، بالضم: وهو وعاء من خشب أو عاج أو غيرهما مما ينحت ويصقل.

(٤) الأسباق: جمع سَبَق بفتحتين: وهو الجائزة التي يستحقها السابق، ومثله وزناً ومعنى: الخطر والندب.

(٥) الإغداق: كثرة الماء وغزارته.

(٦) أطبقوا على كذا إطباقاً: توافقوا وأجمعوا عليه.

وَهِيَ الْغُيُوثُ وَفَقْدُها الْقَحْطُ الَّذِي ... يُخْزِي[١] وَكَمْ في الأَرْضِ مِنْ مِصْدَاقِ[٢]

فَالْوَيْلُ لِلْوَطَنِ الَّذِي لاَ تَرْتَوِي ... مِنْهَا[٣] غُصُونُ شَبَابِهِ الغَيْدَاقِ[٤]

مَنْ لَمْ يَنَلْهَا نَالَهُ مَوْتَانِ فِي ... دُنْيَاهُ مِنْ عَارٍ وَمِنْ إِزْهَاقِ[٥]

فَلْيَرْضَعِ الأَطْفَالُ زَاكِيَ دَرِّهَا ... يَحْيَوا أُسُوداً لاَ جُنُودَ نِفَاقِ

وَإِذَا حَوَى الْوَطَنُ الأُسُودَ وَهُمْ هُمُو ... دَامَ الْعُلاَ لِلِوَائِهِ الْخَفَّاقِ

فَانْصَحْ أَخَاكَ وَسَلْهُ يَا ذَا قَائِلاً ... لِمَ يَا مَهِيبَ الْجِدِّ هِيبَ الرَّاقِي[٦]



(١) يخزي: يوقع في بلية وذل وفضيحة.

(٢) مصداق: برهان، يقال: مصداق النهار الفجر الصادق.

(٣) منها: أي من مكارم الأخلاق التي هي الغيوث الحقيقية عند العقلاء.

(٤) وصف الشباب بالغيداق يدل على البضاضة والنضارة والتنعم، ويدل على الكرم والجود واللطف، وعلى قرب العهد بالدخول في زمن الشبيبة، وهو في الأصل وصف للماء يدل على غزارته وعذوبته. وعام غيداق: مخصب، وعيش غيداق: رغيد.

(٥) إزهاق: قتل.

(٦) في جعل هذا الشطر هنا مقطعاً بعد جعله هنالك مطلعاً رد العَجُز على الصدر، وفيه إيذان بأنَّ الكلام انتهى.

رثاؤه للشيخ المحدِّث الأكبر بدر الدين الحسني

وقد ألقاها في الجامعة السورية

هل الفَلَكُ الأعلى من الشمس والبدر ... خلا أم خلتْ دارُ الحديث من البدر

وهلْ قبةُ الدنيا تكوَّر بدرُها ... أم استُلَّ بدرُ الشام من قبة النّسر

فهاتِ أيا دارَ الحديث حديثَه ... فقد كدتُ أنسى دهشةً كلَّ ما أدري

أعيدي صَدَى ذاك البيانِ البديع من ... حديثِ رسولِ الله أو مُحْكَمِ الذِّكْرِ

وهات على اسم اللهِ ما شئتَ منهما ... فلي شَغَفٌ بالبحث عن حافِظِ العصرِ

ويا قُبَّة النسر ارجعي من دروسه ... صدى ابن جبيرٍ والبخاريّ والثوري

أيا دار في بدرٍ حكاه استقامةً ... حديثُكما عن كوكب المنطق الدرّي

عن الشيخ بدر الدين من قام فيكما ... مقامَ ابن عبد البَرِّ والحسنِ البصري

أعيدا صدى درسَيْه نسمع به صدى ... حديث ابنِ عباسٍ وشعبةَ والزُّهري

عَهِدتُكما والبدر يشرِقُ منكما ... وكلُّ ليالينا بِهِ ليلةُ القدرِ

عَهِدتُكما والعزُّ وقفٌ عليكما ... تبثَّان نورَ الحق نافِذَي الأمر

أَعِرِّيستَيْ ليثٍ له غَيرةٌ على ... حِمى كلِّ حقٍّ لا حمى زيد او عمرو(١)

ألم تحفظا درس الهدى فتردّدا ... علينا صدى ذاك الحلال من السِّحْرِ

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٩٢ من هذا الكتاب.

أَأُفحمتما أم صومَ صمت نذرتما ... كما كان في خِدرَيْكُما صائمَ الدَّهْرِ
أَأُفحمتما أم صمتما أم شجتكما ... معاودة التّسآل عَن صائم الدهر
أجدكما لا تستجيبان سائلاً ... له لوعةُ الخنساء تسألُ عن صَخْرِ
أجدكما لا تشرقان بنوره ... كما كنتما من قبلُ يا فلكَيْ بدرِ
أجدكما أودعتما جسمه الثرى ... أيصدق ناعي شيخ أشياخنا البدرِ
أصدّقتماه ثم لم تتزلزلا ... وهل تملكان الصبرَ عنه إلى الحشرِ
أأرداكما خطبٌ أصمّ صداكما ... أم الليث آلَى لا يعود إلى الخِدْرِ
فقدناه فادْجَوْجى علينا نهارها ... ضحى وأحسَّ الناسُ قاصمةَ الظهرِ
فيا عينُ كل الناس تبكي لأنه ... تمنى لهم طُرّاً نجاةً من الشرِ
فرحماك يا ربي لقلب ملأته ... حناناً فأضحى صادق الحسِّ بالبِرّ
ثمانين عاماً قد طواها وسبعةً ... دؤوباً على الحسنى نفوراً من الوِزْرِ
وشابَ على التقوى كما شبَّ وارثاً ... لها من مربٍّ كامل وأب بَرِّ
وضاهى سعيدَ بن المسيب في التقى ... وأهل التقى كالقابضين على الجَمْرِ
وما كان في دنياه إلا كراحلٍ ... يودّع أهليه ليلحق بالسَّفْرِ
وما شاب ذاك البدرَ يوماً تكلفٌ ... فيا حَبَّذا حالاه في السرِّ والجَهْرِ
تحلَّى بحب الخير للناسِ كُلِّهم ... وَذكَّرَهُمْ في صدقِه بأبي ذَرِّ
وكنا نرى منه الإمام ابنَ حنبل ... غزارةَ علم وابتعاداً عن الفَخْرِ
له بالتقى عند الملوك مهابةٌ ... كما وَصَفَ المأمونُ بِشْراً أبا نَصْرِ
تواضُعُه في عِزَّةٍ عُمَريَّةٍ ... حَمَاهَا جلالُ اللهِ من آفَةِ الكِبْرِ
صَبُورٌ غزاه الدهرُ يَعْجُمُ عودَهُ ... بجَحْفَلِ أحداثٍ لَهُ لجبٍ مَجْرِ
فما نال هذا الدهرُ في غزواتِهِ ... منالاً وحاز الشيخُ ألويةَ النَّصر
تَبَرَّجَتِ الدُّنْيا له وَهْوَ عَالمٌ ... بما ينطوي تحتَ التبرُّجِ من غَدْرِ
فأَعْرَضَ عنها غيرَ مكترثٍ بها ... ولا أثرٌ منها بلبٍّ ولا قِشْرِ

أدامَ مِـطـالَ الـجـوع إلا مُـرَمِّـقـاً كـألـطـفِ ما يـقـتـاتـه ألـطفُ الـطـيـرِ
رأى الـكـونَ آيـاتِ اعـتـبـارٍ بـديـعـةً أخو العقل منها الدهرَ يقرأُ أو يُقري
فـأوسـعـهـا عَـقـلاً أطـال سـكـوتَـهُ ولـكـنَّـهُ فـي الـدرسِ يَـغْـرِفُ مـن بـحـر
رأيـنـا بـه الـفـتـحَ بـن خـاقـانَ عـاكـفـاً عـلـى كُـتُـبٍ رثَّـت مـن الـطَّـيِّ والـنَّـشْـرِ
ولـم يُـرَ فـي عـلـمِ الـحـديـثِ كـفـنِّـهِ ولا عـبـقـريـاً فـيـه يَـفـري كـمـا يَـفـري
إذا عَـبَّ فـي درس الـحـديـث عُـبـابـه تـتـابـعـتِ الأمـواجُ مـن لُـجَـجٍ خُـضْـرِ
تـروقُـكَ مـنـه عَـنْـعَـنَـاتٌ تَـنَـاسَـقَـتْ كـأسْـجَـاع طـيـرٍ أو مـوازيـنَ مـن شِـعْـرِ
مَـجَـالِـسُـهُ لا حـظَّ فـيـهـا لـشـيـبـةٍ ولا خـوفَ مـن لـغـوٍ عـلـيـهـا ولا هُـجْـرِ
مـجـالـسُ جِـدٍّ لا يُـنَـادَى ولـيـدهـا ولا أثـرٌ فـيـهـا لـهـزلٍ ولا سُـخْـرِ
بها المرءُ يحظى بابن سمعون واعظاً بـهـا لان قـلـبٌ كـان أقـوى مـن الـصَّـخْـرِ
بـهـا يـجـدُ الـقـلـبُ الـمـريـضُ دواءَهُ بـه لـمـهـيـضِ الـدَّهـرِ مـا شـاءَ مِـنْ جَـبْـرِ
وكـم مَـرَّةٍ شـاهـدتُـهُ مُـتَـمَـلْـمِـلاً ولـلـدمـع فـي خَـدّيـه سِـلْـسِـلَـتـا قَـطْـرِ
ومـا ذاكَ إلا أنْ رأى وجـهَ شـاحـبٍ طَـوى مـا طَـوى مـا قَـد جَـنَـتْـهُ يَـدُ الْـفَـقْـرِ
أو زَارَهُ ذو نَـكْـبَـةٍ مُـتَـظَـلِّـمـاً عـلـى وَجـهِـهِ خَـطَّ الـبـلا آيـةَ الـقَـهـر
فَـرُحْـمَـاكَ يـا ربـي لـقـلـبٍ خَـلَـقْـتَـهُ عَـطُـوفـاً عـلـى الـمَـلْـهُـوفِ فـي الـعُـسْـرِ والـيُـسْـرِ
إذا لـم يُـطِـق عَـونَ الـصـريـخ بـكـى لَـهُ ونـادَاكَ يـا ربَّـاه دعـوةَ مُـضْـطَـرِ
ألا فـي سـبـيـلِ اللهِ نـفـسٌ تـعـزَّزت بـطـاعَـتِـهـا للهِ فـي الـسِّـرِّ والـجَـهْـرِ
مَـلاَبِـسُـهُ تـحـكـي سـحـائـبَ حـيـنـمـا تـرى قَـزَعـاً مـنـهـا عـلـى صَـفْـحـة الـبَـدْرِ
أَحَـسَّـتْ عـلـيـه نـفـحـةً مـلـكـيّـةً مـن الـروح لـم تُـحْـجَـب بِـجِـلْـدٍ ولاَ شَـعْـرِ
فَـلَـو قَـدَرَتْ أثـوابُـهُ بَـعْـدَ دَفْـنِـهِ عَـلـى الـسعـي لَـمْ تَـسْـكُـن سِـوى ذلـكَ الـقَـبْـرِ
فَـلاَسِـفَـةُ الـدنـيـا لـدى كـل أمَّـةٍ تَـحَـامـى مـن الأثـواب غـالـيـةَ الـسِّـعـر
لـيـحـتـجـبـوا عـن كـل عـاشـق زُخْـرُفٍ وكـم مـنْ تُـرابٍ صَـانَ مَـا صَـانَ مِـنْ تِـبْـرِ

سَلُوا أنجُماً أحيا ليالِيَهُنَّ في صلاةٍ وقُرآنٍ إلى مَطلعِ الفجرِ
سَلُوا كم بكى محرابُهُ رحمةً له وقد قام ليله على الحرِّ والقرِّ
يُنَاجي ويدعو اللهَ والقلبُ خافقٌ على خشيةٍ تذْري من العين مَا تذْري
فَرُحْمَاك يا ربي لشيخوخةٍ قَضتْ وَوَافَتْكَ ترجُو ما لديكَ مِنَ الفَخْرِ
وأَسْبِغْ عليهِ في الجنان أرقَّ ما به يكتسى من سُنْدسِ الحللِ الخُضْرِ
وأحْسِنْ عزاءَ الناسِ فيه فخطْبُهُ دَهَاهُمْ وأنتَ الْمُسْتَعَانُ على الصَّبْرِ



«بشائر الاستقلال»[1]

تاجُ ابنِ ذِي يَزَنٍ أم تاجُنا الحسني ... من مَجَّدَ النَّاسُ ذكرى عَهْدِهِ الحسنِ

تاجان ذِكْراهُما في الكونِ خالدةٌ ... لا سيِّما في بلادِ الشَّام واليمنِ

في قاسيونَ لنا قصرٌ يذكرنا ... بقصرِ غُمْدانَ في عَهْدِ ابن ذي يَزَنِ

كلاهما قومه باهَوْا به ورأوا ... في عهده خيرَ ما يرجون للوطنِ

حازا مكارمَ فيها قيل تهنئة ... (هذي المكارمُ لا قعبان من لبنِ)

كلاهما ابتسمت أيامُ دولتِهِ ... عن صَرْحِ مجدٍ لإسعاد البلادِ بُني

كلاهما فاز من عزِّ البلاد بما ... يرجو وقد جريا دهراً على سَنَنِ

كلاهما أثمرتْ أيامُهُ شرفاً ... بالحرب ذاك وهذا بالسلام جني

كلاهما لم يزل يُعنى بأمته ... حتى استقلَّتْ وحلّت قيدَ مُرْتهن

أقرَّ عينيهما حظ قضى لهما ... من اللُّبناناتِ ما لولاه لم يكنِ

كأنما الفلك استملى مرادهما ... فدارَ جرياً عليه دورَ مؤتمنِ

غُمْدانُ ولّى وخلَّى من مكارمه ... ما لم يزل زمنٌ يرويه عن زمن

وقاسيون له ما الله حافِظُهُ ... للشَّام ما سَجَعَتْ وَرْقا على فَنَنِ

---

(١) لم يضع المبارك عنواناً لهذه القصيدة، وما عنونتها به أقرب إلى موضوعها، والله أعلم.

مضى على نعمةِ استقلالنا سنةٌ ... وكان فيها كلانا جِدّ ممتحن

فيا أخانا لعام أنت زينتُنا ... وكلَّما عُدْتَ تلقى أجمل الزِّيَنِ

قد رُجِّلَ الدَّهرُ باستقلالِ مملكة ... تضمُّ أسمى ذوي الأَحْسابِ والفِطَنِ

والشَّامُ أبناؤها طُرّاً به شُغِفُوا ... لما رأَوْهُ لهمْ كالرُّوحِ للبدَنِ

يا مُلْهم الشُّكْر ألهمنا رعايتَهُ ... كي نستزيدَ من الخيراتِ والمِنَنِ

شُكْراً يؤدِّيه عِرْفانُ الجميلِ على ... نَفْعِ البلادِ به في السِّرِّ والعَلَنِ

شُكْراً يؤدِّيه أهلُ الشَّام أجمعهم ... مَعَ الفرائضِ باسْمِ الحقِّ والسُّنَنِ

يا مُلْهِمَ الشُّكْر ألهمنا القيامَ به ... فالشُّكْرُ والخيرُ مقرونان في قَرَنِ

وألهم الميرة الموهوبَ مجلسُها ... أقصى عنايتها بالخُبْزِ والمُؤَنِ

واحفظْ رجالَ الوِزاراتِ الذين لهم ... نلجا كما يلجأ البحّارُ للسُّفنِ

واسهرْ على الشَّامِ كي ترعى مصالِحَها ... يا تاج يا رمزَ عزِّ الشَّامِ يا حسني



«عواطف الشِّعْر ـ أو ـ شعر العواطف[1]»

ما أنسَ لا أنسَ شكرَ الواحدِ الأحدِ ... على بديعِ التَّجلي ليلةَ الأحدِ

في حفلةٍ لفنون المطرباتِ بها ... ما تقتضي من براعاتٍ ومن عُدَد

وليس بدعاً إذا باهتْ دمشقُ بها ... وقبلها مثلها في الحُسْنِ لم تجدِ

فـ(مصطفى كامل الصَّواف) أتقنها ... إتقانَ خير أخٍ في البر مجتهدِ

إتقان خِلٍّ وفيٍّ قد لقيتُ به ... أوفى صديقٍ صحيح الودِّ معتمدِ

أحيا بها ليلةً فاقت برونقها ... حُسْنَ النهار فليت الشمسَ لم تَعُدِ

كليلةِ القَدْرِ داعيها استجيب له ... حتى ظفرنا بما شئنا من المَدَدِ

أقامها للأُلى في داره اجتمعوا ... بدعوةٍ منه أولتني أجلَّ يدِ

دعاهمو فرحاً بالبُرْءِ من مرضي ... وكان في مَرَضي لي خيرَ مفتقدِ

فكم له من يدٍ بيضا أنستُ بها ... إذ كنتُ رهنَ فراشي واهيَ الجَلَدِ

لم ينسني قطّ في حزني وفي فَرَحي ... شأنَ الصَّديق الصدوقِ الماجدِ السّندِ

في شدّتي ورخائي أثبتتْ يدُه ... أن الإلهَ به قد شدَّ لي عَضُدِي

جادت على إثر برئي لي عواطفه ... بدعوةٍ مع من يهواهموا خَلَدي

---

(1) ليلة الأحد في ١ كانون الثاني سنة ١٩٢١م.

في جلسةٍ سمحت أيدي الزمان بها ... سماحَ ذي كرمٍ في الجودِ منفردِ
ونظمتها يدُ الداعي فحبَّذها ... أولو الحِجى ونجتْ من كلِّ منتقدِ
ما بين عيدين أعطانا الزَّمانُ بها ... عيداً توسّط بين السبتِ والأحدِ
زَهَتْ بمن حضروها من أكارم هم ... من خيرةِ الفُضَلا في هذه البلدِ
وأصبحت جنةً فيها لحاضرِها ... كلُّ النعيم بلا همٍّ ولا نكدِ
قانونها أدبٌ في ضمنهِ طَرَبٌ ... للحاضرين بلا شغبٍ ولا لددِ
يصغون إصغاءَ جمعٍ منذ صبوته ... في الانقياد إلى القانون متحدِ
والكلُّ قُرْبَ كمنجا ليس مبتعد ... عنها كمن جا إليها غيرَ مبتعدٍ
فيا لها جلسةً جاءت مطابقةً ... هوى النفوسِ فلم تنقصْ ولم تزدِ
بلابل الأُنس لما أنشدوا نطقت ... فيها الجمادات نطقَ الصَّادح الغَرِدِ
لو أسمعوا معبداً والموصلي بدا ... عليهما لون وجه الحاسدِ الكمدِ
كانت معازفهم طوعاً لهم ولذا ... قد عانقوها عناقَ الأُمِّ للولدِ
نلنا على يدِ مَن غَنّوا بها طَرَباً ... ما ناله في قديمِ الدّهرِ من أحدِ
مذ ذكروها بتسبيح الطيورِ غدتْ ... تجيدُ تسبيحَ ربِّ العالم الصَّمدِ
فرتّلت من أغاني السَّاجعاتِ لنا ... أسجاعَ معترفٍ باللهِ معتقدِ
وقال أنفسُ عودٍ للسعود أيا ... أوفى سعودٍ لإخوان الصَّفاءِ عُدِ
ويا نظير هَزَارٍ كان يُطربني ... في الرَّوْض نحويَ أسرِعْ غيرَ متئدِ
ويا طروبُ اقترحْ ما شِئْتَهُ ولما ... تودُّ من لجنتي تكرارِهِ استعدِ
فكلُّنا مِثْلُ رَبِّ الدار ذو كَرَمٍ ... من يستعد ما حلا منا له نعدِ
فلم نزل في سماعِ المرقصات إلى ... أن كادتِ الشَّمْسُ تؤذينا من الحَسَدِ
وأنعشتنا الأهازيج الجديدة إذ ... كنا لصبوتنا نصبو إلى الجددِ
حتى نسينا قديماً قال منشده ... «نالت على يدها ما لم تنله يدي»
فـ(مصطفى كامل الصَّواف) حقَّ له ... من الثنا حلّةً تبقى مدى الأبدِ

أبيات بخط الشيخ عبد القادر المبارك وتوقيعه

لغة المتنبي[1]

- ١ -

قال فيها البليغُ ما قال ذو العِـ ـيِّ وكلٌّ بوَصْفِها منطيقُ
وكذاك العدوُّ لم يعدُ أَنْ قا ل جميلاً كما يقولُ الصَّديقُ[2]

أبو الطيب المتنبي الذي يمتُّ بنسبه إلى قحطان من العرب العاربة، ولد وترعرع في الكوفة مدينة الشِّعْر والعروبة في الإسلام بعد أن مضى على تمصيرها في عهد ثاني الخلفاء الرَّاشدين ثلاثةُ قرون، ظلَّت فيها مقرّاً لأقطاب اللِّسان العربي، ورجالات اللغة الفصحى من عرب وأعراب. فلا غَرْوَ أن يكون أبو الطَّيب المتنبي الذي ولد ونشأ فيها معرقاً في عروبته اللسانية إعراقه في عروبته القحطانية. على أن الكوفة التي صارت بعد الإسلام من أعظم الحواضر العربية كانت بقعتها قبل إنشاء المباني فيها باديةً مأهولةً بعرب الجاهلية وأعرابها من سكان الوبر، الذين كانت وفودهم لا تبرحُ غاديةً رائحةً بين منازلِ ملوك العرب من اللَّخْميين والمناذرة، إذ ليس بين الحيرة عاصمة ملوك العرب في الجاهلية وبين الكوفة سوى ثلاثةِ أميال.

---

(١) المجلد الرابع عشر، مجلة المجمع العلمي العربي، كانون الثاني وشباط سنة (١٩٣٦م)، الموافق شوال وذو القعدة سنة (١٣٥٤هـ).

(٢) هذان البيتان لأبي البيداء أسعد بن عصمة الرياحي.

وفي جوار الكوفة الخورنق الذي ذكرته العرب في أشعارها، وضربت به الأمثال في أخبارها، كما قال ياقوت، ونقل أيضاً عن الهيثم بنِ عدي[1] أنه لم يقدم الكوفة أحدٌ من ولاتها إلا وأحدث في قَصْرها المعروف بالخورنق شيئاً من الأبنية. وقال ياقوت: أما ظاهر الكوفة فإنها منازل النُّعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريَّان، وما هنالك من المتنزهات والديرة الكثيرة اهـ فَحُقَّ لأبي الطيب أن يكون من أعرقِ الشُّعراء في عروبته ومعرفته بلغة أُولئك الذين يقول الأسود بن يَعْفَر فيهم:

أهلِ الخَوَرْنَقِ والسَّدير وبارقٍ والقَصْرِ ذي الشُّرَفاتِ من سِنْدادِ

وما من بقعةٍ في الكوفة وما جاورها إلا وهي معهدٌ من معاهد العروبة التي يحنُّ أبو الطيب إليها حنين الأَسَدِ إلى عرينه ولبوته، ومَنْ أحقُّ من عباقرة الشعراء بحب وطنه ولغته، فالله أعلم بما اهتاج في نفس أبي الطَّيِّب من طَرَبٍ حين تغنى بقوله:

تذكَّرْتُ ما بين العُذَيْب وبارقِ مَجَرَّ عوالينا ومَجْرَى السَّوابقِ

ولئن كان أبو الطيب قد حِيْل بينه وبين وطنه، فقضى معظمَ سنيِّ حياته بعيداً عنه، فإنه ما حيل بينه وبين لغته العربية التي لم ينزع إلى لغةٍ سواها، ولم يهو شيئاً هواها، تلقنها طفلاً، وشعر بها مراهقاً، وتضلع منها يافعاً، واستحوذ عليها فتىً، وبذَّ فحول شعرائها مكتهلاً. ولو أراد أبو الطيب أن يكون كاتباً لأنسانا الصُّولي والجاحظ، ولو أراد تدوين اللغة والعربية على مثال معاجم أئمتها لما سَبَقَه الأزهريُّ في «تهذيبه»، والفارابي في «ديوانه»، والصاحب في «محيطه»، وابن فارس في «مجمله»، وابن دريد في «جمهرته»، وأبو علي الفارسي في «تذكرته»، وغلام ثعلب في «يواقيته»، وابن جني في «مقتضبه»، و«خصائصه»؛ على أن شاعريته التي أَخمل بها فحولَ الشعراء أفادتنا عشرات الكتب التي أَلفها

(١) وهو كوفي أيضاً.

علماءُ اللغة العربية من كبار أُدبائها وسراة نوابغها بسبب ديوان شعره شَرْحاً وبحثاً ونقداً، وسيظلُّ شِعْرُه مدعاةً لرجال الأدب العربي إلى خدمة هذه اللغة ما دام أهلها غيارى عليها.

ولقد كان لأبي الطيب من الشُّهْرة بالنُّبوغ والعبقرية في حياته ما كان للجاحظ كما يظهر مما ذكره ياقوت في «معجم الأدباء»: من أن الخطيبَ أبا الوليد بن عسال حَجَّ، فلما انصرف تطلَّع إلى لقاء المتنبي، واستشرف، ورأى أن لقيته فائدة يكتسبها، وحلَّة فخر يحتسبها، فصار إليه، فوجده في مسجد عمرو بن العاص، ففاوضه قليلاً، ثم قال: ألا تنشدني لمليح الأندلس ـ يعني ابن عبد ربه ـ فأنشده:

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقاً إلخ، فلما أكمل إنشاده استعادها منه، ثم صفق، ثم قال: يا ابن عبد ربه، لقد تأتيك العراق حبواً.

وليس غرضي من هذا الشَّاهد أن أبحث عن كنهِ ما أظهره المتنبي من استحسان لهذا الشعر، وإنما غرضي أن الأندلسيَّ شقَّ عليه أن يعود إلى الأندلس دون أن يلقى عظيمَ أُدباء الشرق.

ومن غَرَامِ أبي الطَّيِّب باللغة العربية حسن تخريجه لولده محمد الذي أجاز هذا البيت:

زارنا في الظَّلامِ يطلبُ سِتْراً ... فافْتَضَحْنا بنورِهِ في الظَّلامِ

بقوله:

فالتجأنا إلى حنادِسِ شِعْرٍ ... سَتَرَتْنا عن أَعْيُنِ اللُّوَّامِ

وليس بعجيب على من نشأ تلك النشأة بين عرب الكوفة حَضَراً، وعرب كلب باديةً، مع ما فطر عليه من لوذعية وشاعرية أن يصبح أُستاذاً في اللغة للجاحظ الثاني أبي الفَضْل ابن العميد الذي قرأ عليه كتاباً في اللغة من تصنيفه، وكان يدهش لما يرى من مسابقته لإيراد الشَّواهد، وإفاضته في بيان أسرار القضايا اللغوية.

واستظهاره كتاباً عُرِضَ عليه في سوق الورَّاقين بتصفحٍ يسيرٍ، وجوابه للفارسي عما جاء على فُعْلى، ولابن خالويه عن أشجى في قوله:

وفاؤكُما كالرَّبْعِ أَشْجاه طاسِمُهْ

ولسيف الدولة لما انتقد عليه قوله:

وقفتَ وما في الموتِ شَكٌّ لواقفٍ كأنَّكَ في جَفْنِ الرَّدى وهو نائِمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً وَوَجْهُكَ وضَّاحٌ وثَغْرُكَ باسِمُ

كل ذلك من دلائل تبريزه في قوة الحافظة، وامتلاك زمام اللغة التي ملكته كما ملكها، وعنايته بالغوص على المعاني، لا يبلغ في التعريف بفضله معشار ما يبلغه فيه شعره الشاعر. فكأنَّ اللغة العربية في شعره غيرها في شعر غيره. والبيان كالجمال في كونه يملك القلوب ولا يحيط بكنه أسراره إلا علاّم الغيوب. فلا جرم إنه لجدير أن يسمى طوراً شعراً وتارة سحراً، وتبارك الله أحسن الخالقين الذي خلق الإنسان علّمه البيان.

وأبو الطيب إنما كان نسيج وحدِه ببهاء بيانه وعبقري خياله، إذ هو فيهما كالشاعر الذي يقول:

إني وإنْ كنتُ صغيرَ السِّنِّ وكان في العين نبوٌّ عني
فإنَّ شيطاني أميرُ الجنِّ يذهبُ بي في الشِّعْرِ كل فَنِّ

وإنك لترحم الشَّاعر أو الخطيب إذا أطال خوفاً عليه من أن ينبهر أو يصير إلى الإسفاف، أما أبو الطيب فكلَّما أطال ازداد تحليقاً، حتى يجعل مكان الرحمة من سامعه حسداً، كما يحكى عن زياد بن أبيه.

وهو في شاعريته الغنية بثروته اللغوية أجدر من أبي العتاهية الذي نشأ في الكوفة بأن يقال فيه: لو أراد أن يجعل كلامه كلَّه شِعْراً لفعل.

فلسانه كلسان عبد الملك المُنْكَدِري الذي قال فيه ابن المعدَّل: كلما تذكرتُ

أَنَّ الترابَ أكل لسان عبد الملك حَقَرْتُ الدنيا في عيني. وكلاهما أقام رَدَحاً طويلاً في البادية بين بني كلب؛ وكان عبد الملك إذا حاور الإمامَ الشَّافعي ظلَّ مَنْ يسمعهما مبهوراً من فصاحتهما، لأنَّ الإمامَ تأدَّب في البادية بهُذَيْل، كما أَنَّ ذاك تأدب بخؤولته من بني كلب.

وكان أبو الطَّيب طَبّاً بوضع الكَلِم في مواضعه أكثر مما كان عنترة الفَلْحاء طَبّاً بأخذ الفارسِ المستلئم، فهو كما قال امرؤ القيس:

يـــذودُ الـــقـــوافـــيَ عـــنـــه ذيـــادا ذيـــادَ غُـــلامٍ غـــويٍّ جَـــوَادا

ومن مزاياه العربية غيرته على شعره أن ينتجع به من لا يفقه أسرار اللغة، وكانت هذه المزية من أشد البواعث على رغبته في إيثار سيف الدولة الذي كان يودّ أن لا يفارقه حتى يفارق دنياه.

ولولا ذلك لانتجع من نبغ في زمن خلافتهم من ملوك بني العَبَّاس، وهم: المقتدر، القاهر، الراضي، المتقي، المستكفي، المطيع؛ لكنه رأى السلطة في بلاطهم، بلهَ مملكتهم لطماطم الموالي وأقزام المماليك، فكانت بغداد عنده كشعب بوّانٍ في طمطانية المتحكمين فيها:

مـلاعِـبُ جِـنَّـةٍ لـو سـار فـيـهـا سـلـيـمـانٌ لـسـارَ بـتَـرْجُـمـانِ

وكل ما قاله في مدح غير سيف الدولة ليس إلا إغراء له بطلبه ومعاتبة له، وهل يستطيع من وُلد وترعرع في مدينة المنبر العلوي منجبة الألوف من فحول البلغاء، وهو بارٌّ بلغته إلا أن يكون كأبي الطيب اعتزازاً بعربيته، وإعزازاً لها، وإشفاقاً عليها من آفاتِ اللَّحْن، إشفاق ذلك الأعرابي الذي سمع أحد الخلفاء من العباسيين يلحن، فصرّ أُذنيه، وقال: أشهد أنك ما ولّيتَ الخلافة إلا بقضاءٍ وقدر.

وإليك مثالاً من فقه اللغة في الكوفة من محاورةٍ بين كوفيٍّ واثنين من الأعراب في القرن السَّادس للهجرة، بينما كان الكوفي عمر بن إبراهيم العلوي

يغرس فسيلاً في حائطٍ له، إذ مرَّ به أعرابيان، فقال أحدهما للآخر: أيطمع هذا الشيخ الفَحْل أن يأكل من جني هذا الفسيل؟؟ فسمعه الشيخ وقال: يا بني كم مِنْ كبشٍ في المرعى، وكم من خروف في التنور، فسمع أحدهما دون الآخر الذي سأل رفيقه عما يقول العلوي، فقال له: إنه يقول: كم من نابٍ تُسْقى في جلد حُوَار، فَعَلِمَ الأعرابيُّ ما قال، وأعجبه ذلك.

هذا بعد عصر المعري الذي استنبط فيه العرب، فما بالك بالعصور الأُوَل في عكاظ الإسلام مربد البصرة وظاهر خدّ العذراء التي كانت من أكبر مدن العرب العرباء؟ وفي مدرسة أبناء أشرافها أو كتابهم تلقى المتنبي دروسه الأولى باللسان العربي المبين الذي جرى على لسانه الطليق الذليق شعراً مبشراً بعبقريته وهو ابن عشر سنين. وبعد، فإني أقول في لغة أبي الطيب ما قاله يونس بن حبيب في ابن العلاء البصري: لو كان أحدٌ ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء لكان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو بن العلاء كلِّه في العربية، ولكن ما من أحد إلا وأنت آخذٌ من قوله وتارك إلا أفصح من نَطَقَ بالضَّاد نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام.

وحبُّ المتنبي اللغة العربية حدا به إلى الإمعان في تعرف أسرارها، والحرص على تصفُّحِ خيرة معاجمها الكثيرة التي أولها «العين» للفراهيدي، وآخرها «المحيط» للصاحب، و«الصحاح» للجوهري، و«كتاب العالم واللغة المفتتح بالفلك والمختتم بالذرة» لأحمد بن أبان الأندلسي المتوفى سنة (٣٨٢) وهو مئة مجلد، ولقد بلغت كتبُ اللغة في القرن الرابع للهجرة من الوفارة والكثرة ما يكفي في الدلالة عليه قول الصَّاحب ابن عباد كما في «المُزْهر»: أحتاج إلى ستين جملاً أنقل عليها كتب اللغة التي عندي. فهل يصحُّ بعد هذا أن يقال: كل ما في كلام المتنبي من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو في كتاب «الجمهرة»، وهو قوله: تطوى المجلحة العقد، كما يدَّعي صاحبُ كتاب «إيضاح مشكل شعر المتنبي»، على ما نقل صاحب «الخزانة الكبرى»؟ وأنى يمكن

الوقوف على سند صحيح يثبت أنَّ أبا الطيب لم يطلع على كلمة المجلحة أو العقد إلا في كتاب «الجمهرة» لابن دريد المتوفى سنة (٣٢١)؟ وأبو الطيب طالما أحيا الليالي دَرْساً حين لم يكن له سوى الكتاب سميراً، رجاء أن يقف من طريق الصناعة على محاسن لغة أتقنها من طريق الطبيعة في مدرستها العالمية حضارةً وبداوة.

ومثله يترفَّع أن يقول: إنني أُطالع كتاب فلان وأدرس ديوان كذا، وكلمة مجلحة جاءت في شعر بشر بن أبي خازم، وفي شعر لبيد، وفي شعر امرئ القيس، وفي شعر بنت وثيمة في رثائها لأبيها كما في بيان الجاحظ في الباب الذي أوله (وكانوا يمدحون شِدَّة العارضة). وكلمة العقد التي هي جمع الأعقد لها شواهد أوفر وأكثر من شواهد المجلحة، والأليقُ بالصَّواب، والأقرب إلى المعقول في مثل المجلحة أن يقال: استفادها من لغة الأعراب الذين كان يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم من أهل البوادي. والتجليح لفظاً ومعنىً بابن الوبر أَليق وأعلق منه بابن المدر، وقلما تراه في كلام أهل الحَضَر، ومعناه الذي هو أن يركب المرء رأسه، ويحمل حملة الحيوان الضَّاري قلما يستغني عنه سكان الصَّحاري.

وكأنَّ صاحب كتاب «إيضاح المشكل» أراد الغَضَّ من أبي الطيب الذي قُدّر عليه أن يكون محسداً كما قُدِّر عليه أن يكون أبا محسد بكونه قليل الاطلاع على كتب اللغة، وأنه لم يطلع إلا على غريب أبي عبيد، وعلى أقل من القليل من «جمهرة» ابن دريد، والمتنبي يقول له بلسان الحال: حرف في قلبك خير من ألفٍ من كتبك، ورحم الله أبا ذُؤَيب إذ يقول:

وعَيَّرَها الواشونَ أَنّي أُحِبُّها ... وتلكَ شكاةٌ ظاهِرٌ عنكَ عارُها

والمُجَلِّحة في كلام المتنبي جاءت في القصيدة التي مطلعها:

«أَقَلُّ فَعَالي بَلْهَ أكثرَهُ مَجْدُ»

في هذا البيت:

وأمضِي كما يمضي السِّنانُ لِطِيَّتي وأطوِي كما تَطْوِي المُجَلِّحةُ العُقْدُ

وجاءت في التي مطلعها:

«أيَـدْرِي مـا أرابـكَ مـن يُـرِيْـبُ»

إذ يقول:

مُجَلِّحَةً لها أرضُ الأعادِي ولِلسُّمْرِ المناحِرُ والجُنوبُ

وكان الأَوْلى بالأصبهاني إذا ادعى معرفة مصادر غريب اللغة في شعر المتنبي أن يقول: إنما أخذ المجلحة من بائية امرئ القيس التي أولها:

أَرانا مُوْضِعِينَ لأمرِ غيبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشَّرابِ

عصافيرٌ وذِبَّانٌ ودودٌ وأجرأُ من مُجَلَّحَةِ الذِّئابِ

لأن أبا الطَّيِّب فحلَ شعراء العراق من سلائل عرب اليمن حقيقٌ أن يحفظ شعر امرئ القيس فحل شعراء نجد من أبناء ملوك كِنْدة من اليمن، لا سيما الشعر الذي قيل بسبب معركة حمي الوطيس فيها قرب الكوفة، وكان يومها عصيباً من أشد أيام العرب هولاً، وهو يوم الكلاب الذي عمُّ امرئ القيس شُرَحْبيل مِنْ قتلاه. ومثلُ أبي مُحَسَّد من يُعنى بدراسة أخبار العرب لا سيما أيامها، على أَنَّ ذلك كلَّه تحكمٌ ليس له مبرر، ومن يستطيع أن يحكم عليه أنه لم يسمعها ويحفظها في منزل أسرته في كندة بين أحياء الكوفة في مدرسة الحياة الأولى التي يكون التعلم فيها بالفطرة، ولكن يا أبا الطيب:

بِحَسْبِكَ أني لا أرى لك عائباً سوى حاسدٍ والحاسدونَ كثيرُ

كما قيل في شأن معاصرك المِفْضال علي بن عيسى بن داود بن الجَرَّاح، وليس هذا التحكم عليك في دعوى أنك لم تعرف كلمة المُجلِّحة إلا من «الجمهرة» بأغرب من تحكم من ادعى أنك سرقت قولك:

وَمَـــنْ جَـــهِـــلَـــتْ نَـــفْـــسُـــهُ قَـــدْرَه   رأى غـــيـــرُهُ مـــنـــه مـــا لا يَـــرَى

من قصة قَصَّار كان يعمل على شاطئ نهر، وكان كل يوم يرى كركياً يجيء، فيلتقط من الحمأة دوداً يقتصر في القوت عليه، حتى رأى ذات يوم صقراً حلق، ثم انقضَّ على حمامة، فاصطادها وأكلها. فقال الكركي: ما لي لا أصطاد الطيور كما يصطاد هذا الصقر وأنا أكبر منه جسماً؟ فارتفع في الجوّ وانقضَّ على حمامة، فأخطأها وسقط في الحمأة، فتلطَّخ رأسه وريشه، ولم يمكنه أن يطير، فأخذه الصياد ورجع إلى منزله، فقيل له: ما هذا؟ فقال: «كركي يتصقر»، فسمع المتنبي هذه الحكاية، فأخذ منها معنى هذا البيت:

وَمَـــنْ جَـــهِـــلَـــتْ نَـــفْـــسُـــهُ قَـــدْرَهُ   رأى غـــيـــرُهُ مـــنـــه مـــا لا يَـــرَى

قال ابن نباتة شارح «رسالة ابن زيدون» بعد هذه الحكاية: وهذا من نادر التعصب على هذا الرجل الفاضل المحسود.



لغة المتنبي[1]

ـ ٢ ـ

أبو الطَّيِّب له ولعٌ ودُرْبة باستعمالِ الفصيح في شعره ونثره، وسائر كلامه، فإذا حاول العدول عن منهاج اللِّسان المُضَري القويم لم يستطع إليه سبيلاً، فما أصدقه في قوله:

وكـلْـمـةٍ فـي طـريـقٍ خِـفْـتُ أُعْـرِبُـهـا فـيُهْـتـدى لـي فـلـم أقـدِرْ عـلـى اللَّـحَـنِ

من قصيدته التي مطلعها:

أفـاضِـلُ الـنَّـاس أغـراض لـذا الـزمـن يـخـلـو مـن الـهـمِّ أخـلاهـم مـن الـفـطـن

فالمتنبي يستسهل بَذْل نفسه في سبيل صيانة لغته التي يفديها بروحه، وكأنَّه يقول: لا بارك الله في الحياة بعد ضياع اللغة. من أجلِ ذلك رأى ارتكابَ ما فيه خطر على حياته أهونَ من ارتكاب ما فيه خطر على لغته. وفي البيت مسألتان: (خفت أعربها) من الفعل المضارع، وتحريك حاء (اللحن) اتباعاً للام، وشاهد الأول قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ أي أن أعبد، وقول طرفة بن العبد:

ألا أيُّـهـا ذا الـزَّاجـري أحـضـرَ الـوغـى وأنْ أشـهـدَ الـلَّـذَّاتِ هـل أنـتَ مُـخْـلِـدي

---

(١) المجلد الخامس عشر، مجلة المجمع العلمي العربي، كانون الثاني وشباط سنة (١٩٣٧م)، الموافق شوال وذو القعدة سنة (١٣٥٥هـ).

أي أن أحضر الوغى، ومن هذا القبيل قولهم: مره يحفر بئراً: أي أن يحفر، وقولهم: خذه قبل يأخذك: أي قبل أن يأخذك، وتسمعَ بالمُعَيْدِي خيرٌ مِنْ أن تراه: أي أن تسمع. والمتنبي كسائر فصحاء الكوفيين كثيراً ما يستعمل ذلك في قوله:

وتَوَقَّدَتْ أنفاسُنا حتى لقد أَشْفَقْتُ تحترقُ العواذِلُ بيننا

وقوله:

وما تَسَعُ الأزمانُ عِلْمِي بأمرِها ولا تُحْسِنُ الأيامُ تكتبُ ما أُمْلي

وقوله:

أُشْفِقُ عند اتِّقادِ فِكْرَتِهِ عليه منها أخافُ يَشْتَعِلُ

وقوله في ثياب أهديت إليه:

أَقَرَّ جِلْدِي بها عليَّ فلا أَقْدرُ حتى المماتِ أَجْحَدُها

ويسوغ أن يعود الفعل المضارع مرفوعاً مع إضمار أن قبله، لأن الحرف عامل ضعيف، فإذا أضمر زال أثره، ولم يقوَ على الظهور، كما يسوغ أن يبقى منصوباً باعتبار أن المقدر كالثابت، وعليه قول المتنبي:

تَوَقَّهُ ومتى ما شِئْتَ تبلُوَه فكُنْ مُعَادِيَه أو كُنْ له نَشَبا

في التي مطلعها:

دمعي جَرَى فقضى في الرَّبْعِ ما وَجَبَا

وقرئ كما في «الكشاف» للزمخشري (أعبد) مرفوعاً، وقرئ منصوباً في سورة الزمر من قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدَ﴾

وأما تحريك حاء اللحن بالفتح اتباعاً للامها، فهو من قبيل تحريك الهاء في نهر وزهر ودهر. قال أبو النجم:

يا جبلاً طالَ مَعَدّاً فاشْمَخَرْ أشمَّ لا يَسْطِيعُه النَّاس الدَّهَرْ

قال ابن منظور في «لسان العرب»: إما أن يكون الدَّهْر والدَّهَر لغتين كما ذهب إليه البصريون في هذا النحو، فيقتصر على ما سمع منه، وإما أن يكون ذلك لمكان حروف الحلق فيطرد كما ذهب إليه الكوفيون اهـ، والمراد من اللحن في بيت أبي الطَّيِّب الخطأُ في الكلام، والعدول عن سَنَنِ الصواب فيه، ولم يرد شيئاً من معانيه الأخرى كاللغة والفهم والفطانة والألغاز والتعريض والغناء والتطريب، وإن كان لفظ اللحن مشتركاً في ذلك كلِّه. إن أبا الطيب في تمسكه بعربيته والتزامه فصحاها لهجةً وألفاظاً مطبوعٌ يجري في ذلك على مقتضى طبعه، فهو من أشبه الناس بالأعرابي الذي كان الترافع إليه ليكون حَكَماً بين سيبويه والكِسائي، فلم يستطع أن يلحن، فيقول: فإذا هو إياها، ولكن استطاع أن يكذب فيقول: الحق مع الكسائي، ولو أكره على التلفظ بالنص المتناقش فيه لظهر أن الحق مع سيبويه، لأنَّ لسانه لا يجري حينئذ إلا بقوله: فإذا هو هي، على ما ذهب إليه سيبويه، فكان احتمال عار الكذب عنده أهون من احتمال عار إفساد لغته الفصحى الجميلة التي بها جاء أحسن الحديث وحياً، كلما زدته تلاوة زادك حُسْناً وطلاوة. وليس أبو الطيب بِدْعاً في عشقه لغةً مُضَرية تجلَّت له من عرائسها:

وجوه لا تزال تزيد حُسْناً لمثلِ جمالِها خُلِقَ الغرامُ

ومن أشباهه في الشِّنْشِنة ذلك الأمير جبلة بن عبد الرحمن الذي كان يكتب باللسان المبين أسماء الأطعمة التي يريدها في رقاع يبعث بها إلى طاهيه، وكان هذا لا يقدر على الاستقلال بفهمها لضعف عربيته، فيراجع ابن أبي إسحاق الحضرمي أو يحيى بن يعمر العدواني للاستيضاح عما كتبه له سيده جبلة في تلك الرِّقاع، فإذا عرف ما فيها من أنواع الأطعمة أتاه به، وكان من أجل ذلك يبطئ عليه في إحضارِها، فقال له:

ويحك أيها الطاهي، ما بالك تبطئُ كأنّك تريد بإبطائك أن تحملني على

الصيام؟ فقال له الطاهي: سَهِّلْ كلامك أسهلْ طعامك، فقال له سيده: يا ابن اللخناء أفأدعُ عربيتي من أجل عِيِّك؟

ولصحة الطَّبْعِ في اللغة كان لفصحاء العهد الجاهلي وصدرِ الإسلام أعلى مقام بين طبقات أمراء الكلام، وهيهات أن تظهر عبقرية البيان إلا بسلامة الذَّوْق وطلاقة اللسان، ولقد أصاب المَحَزّ وطَبَّقَ المَفْصِل من قال:

نِعْمَ عونُ الفتى إذا طلب العِلْـ ـمَ ورامَ الآدابَ صحةُ طَبْعِ

فإذا الطَّبْعُ خانه بَطَلَ السَّعْـ ـي وصارَ العناءُ في غيرِ نَفْعِ

وقال المتنبي:

أَبْلَغُ ما يُطْلَبُ النجاحُ به الطَّـ (م) ـبْعُ وعندَ التعمُّقِ الزَّلَلُ

لا جَرَمَ أن لهؤلاء المطبوعين في كلامهم أن يعجبوا ممن يلحن، ويتهاون بالإعراب، ويحيد في كلامه عن سَنَنِ الصَّواب كالأعرابي الذي كان يقول: عجبتُ للتجار الذين يلحنون، فيستطيعون مع لحنهم أن يربحوا في متاجرهم، وكالذي سمع بعض الخلفاء في العهد العباسي يلحن في كلامه فقال: لولا القضاء والقدر لما قُدِّر أن يكون هذا خليفة، ولكن قدر فكان، وليس بضائر فارس الطُّخْرور أبا مُحَسَّد ـ وشعره شعره ـ قول ابن خالويه فيه: إنه لم يكن يعرف أن البعير يستعمل بمعنى الحمار، كأنه انفرد بمعناه، ولم يحوه سواه.



دمعتي على أستاذي الكبير الشيخ عبد القادر المبارك[1]

يـا غـريـبـاً والـشـام تـنـزِفُ بُـعْـدا	وهـواهـا يُـغـريـك مُـمْـسـى ومَـغـدى
ما ظلالُ النخيلِ رفَّت على النِّيْـ	ـل لِـتُـنْـسِـيْـك لـلـمـحـبِّـيـنَ عَـهْـدا
غَـنِّـنـي نـغـمـةَ الـشَّـآمِ وقُـلْ لـي	بــردى لا يــزالُ يـنــســابُ شَــهْــدا
بـــردى مـــا روى الـــفـــؤادَ ســـواه	وســوى الــشَّــامِ مــا تــبــدَّلْــتُ وُدَّا
وبـأرضِ الأهـرامِ حَـلَّ بـيَ الـشَّـوْ	قُ لصِيْدٍ مالوا على الخطب صدّا
الأبــاةِ الــذيــن أَعْــهَــدُ مــاضــو	نَ مــع الــحــادثــاتِ لِـيْـنــاً وشَــدَّا
مِثْلَ سيفٍ إنْ واصَلَ الغِمْدَ حيناً	فــجــديــرٌ بــأنْ يــفــارِقَ غِــمْــدا

❁ ❁ ❁

أيـهـا الـمـنـتـئـي أجـاءكَ أَنَّ الـشَّـ (م)	ـيـخ قـد وسَّـدُوه فـي الـشَّـامِ لـحـدا
عَـمْـرك الله؛ جـاءنـي الـنـبـأ الـمـحـ	زن فــيــه فــازدادَ بُــعــديَ وَجْــدا
كـان نبعَ الفُصحى فيا ليت أني از	دَدْتُ مــن فَـيْـضِـهِ الـمـبـاركِ وِرْدا
يَـسْـكُـبُ الـمُـعْـجـم الـعـمـيـم فـيـرويـ	ـهِ ويـأتـي عـلـيـه حِـفْـظـاً وسَـرْدا

---

(١) لم تنشر هذه القصيدة في ديوان زكي المحاسني الذي نشرته وزارة الثقافة في دمشق سنة (٢٠٠٦م).

أتُرى الأَصْمَعِيُّ وابنُ المثنَّى … في جلابيبه النَّقيةِ رُدَّا
كان حلوَ الحديث مزدحم الأخـ … ـبارِ بل كان في التكلُّم فَرْدا
هو بحرٌ بغير جَزْرٍ فيا ليـ … ـتَ الليالي زادَتْهُ في العُمْر مَدَّا
يملأ العينَ مَشْهداً، ومجال السَّـ (م) … ـمع وعياً والقَلْبَ والعقلَ رُشْدا
لكأنِّي أرى العِمامة والبُرْ … دةَ تستوكفانِ مِسْكاً ونَدَّا
وكأنِّي أُحِسُّه جاهِرَ الصَّوْ … تِ ينادِي فأحسبُ الأمرَ جِدّا
علَّمَ الدِّيْنَ مِثْلَما يبتغي الدِّيـ (م) … ـنُ نفوساً تُيمّمُ اللهَ قَصْدا
وروى سيرةَ الرسولِ فصاغَ الـ … ـقلبَ نوراً وكوَّنَ النَّشْءَ جُنْدا
بمعدٍّ ويَعْرُبٍ زَجَرَ الأخـ … ـلاقَ فينا فراح يبني مَعَدَّا
رحمَ اللهُ خُلقَه كان دنيا … من خِصالٍ جَمَعْن وُدّاً وزُهْدا
رحمَ اللهُ عِلْمَه كان عقلاً … وبياناً لا يوسعانك حدّا
إن يكنْ زاهدَ التواليف، فالأيـ (م) … ـامُ ما شجَّعَتْ ولم تُبقِ جَهدا
كان سُقراطُ قبلهُ زاهدَ التأ … ليف، لاموه، فَهْوَ أسبق ردّا
قال إني أخرجتُ للنَّاسِ سِفْراً … يملأُ الدَّهْرَ في لياليه سُهْدا
إنَّ أفلاطون العظيمَ كتابي … فاقْرَؤوني فيهِ أكنْ فيه أجْدى
رحِّموا الشَّيْخَ، من تلاميذه الأجـ … ـيالُ في الشَّامِ ما يوفّون عدّا
إنَّ أستاذيَ الذي كان تلميـ … ـذاً لتلميذِه بكاهُ وفدّى
يا مُرَبّي التَّجهيز بعضُ أياديـ … ـك عليهِ أَنْ كان للفَضْل مَهْدا
إن يكنْ أنكر الزَّمانُ أخا العِلْـ … ـم، وفي أهله الأُباة استبدّا
فالضحايا مكتوبةٌ لجدودٍ … نالَ أبناؤهم من العيش رغدا
أمسِ في الشَّامِ قد بكيتُ سعيداً … فيلسوفاً شهدتُه كيف هُدَّا[1]

---

(١) هو سعيد البحرة، كان أستاذ الفلسفة وعلم النفس في مكتب عنبر، انظر «ذكريات الطنطاوي»: ٢/ ٢٦٠، و«مكتب عنبر» للقاسمي: ص٧١.

وأُراني على رُبى النِّيلِ أبكي الـ ـيومَ شيخاً قد كان في الشَّجوِ نِدّا
كوكبٌ إِثْرَ كوكبٍ من سماءِ الشَّـ (م) ـامِ غابوا فكيف نَسري ونُهْدى

❁ ❁ ❁

بأبي جِلِّقاً وفيها قَبِيْلي وعليها وجهُ الخلود تبدَّى
الميامينُ في حِماها مصاليـ ـت أعدّوا للخَطْبِ ناراً وجُرْدا
كلّهمْ في هوى العروبة مشغو فٌ وما كان ذو العروبةِ عَبْدا
هاتِ من نَحْوِ دارةِ الشَّام أمْناً وسلاماً على القلوب وبَرْدا
وسِّدوا الشَّيْخَ في حِماها وحطُّوا من رُباها عليه زَهْراً وَوَرْدا
وانفحوه برحمةٍ هي أحلى الـ ـذِّكْرِ مِنْ بعدِهِ وأطيبُ خُلْدا
وسجايا «مُحَمَّدٍ» في التأسِّي علَّمَتْهُ لقاءَه الخَطْبَ جَلْدا[1]
إنْ أكنْ عنده؛ مسحتُ له الدَّمْـ ـعَ وأنشدتُه شعوريَ وَقْدا
جمَّل الصَّبْرَ في «المبارك» أَنْ كا ن نبيلاً وأكرمَ النَّاسِ وُلْدا
مجدُهُ صفحةٌ وإنَّ بنيه صفحاتٌ تضمُّ عِزًّا ومَجْدا
لسلامي خلفَ الغيوبِ حنانٌ يا فقيداً ونحن أصْدَقُ فَقْدا
ودَّعتْ فيك أمةُ الضَّادِ نجماً كانتِ الضَّادُ فيه غُنْماً وسَعْدا

القاهرة في (١٣) كانون الأول (١٩٤٥) زكي المحاسني

❁ ❁ ❁

(١) هو الأستاذ محمد المبارك نجل الشيخ عبد القادر.

ثبت المصادر والمراجع

- آية الحديث المسلسل في الترحاب بسمو الأمير فيصل (وهي قصيدة نظمها الشيخ عبد القادر المبارك بمناسبة عودة الأمير فيصل من مؤتمر باريس، وألقاها في حديقة الأمة سنة ١٩١٩م، عنيت بطبعها إدارة مجلة المدرسة السلطانية الأولى (مكتب عنبر) في مطبعة الترقي بدمشق.
- الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس مقدسي، دار العلم للملايين، الطبعة السابعة ١٩٨٢م.
- إحدى العبر بين البشر، عبد القادر المبارك، مطبعة الترقي ١٣٤٣هـ.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م.
- أعيان دمشق، محمد جميل الشطي، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
- بدر الدين الحسني (العلامة الداعية والمصلح الاجتماعي)، د. مازن المبارك، قدَّم له: د. هشام برهاني، دار البشائر، دمشق، ٢٠٠٧م.
- بكر الشرق، عبد القادر المبارك، بدائع الفنون، الشام، ١٣٢٦هـ.
- تاريخ الأقطار العربية الحديث، لوتسكي، دار التقدم، موسكو، ١٩٧١م.
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، دار الفكر، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- تاريخ المجمع العلمي العربي، أحمد الفتيح، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، مطبعة الترقي، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.
- تركية الفتاة وثورة (١٩٠٨)، تأليف الدكتور أرنست أ. رامزور، ترجمة: د. صالح أحمد العلي، قدم له وراجعه: د. نقولا زيادة، منشورات دار الحياة، بيروت ١٩٦٠م.

- تعطير المشام في مآثر الشام، جمال الدين القاسمي ٣/ ٢٧، ٢٩، ترجمة الشيخ محمد المبارك والد الشيخ عبد القادر، وقد نشرت ضمن كتاب «المفاخرات والمناظرات».
- ثمار المقاصد في ذكر المساجد، يوسف عبد الهادي، تحقيق: محمد أسعد طلس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.
- جيل الشجاعة، نجاة قصاب حسن، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
- حديث دمشقي، نجاة قصاب حسن، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٩٩٥م.
- الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ـ١٩٢٠، د.خيرية قاسمية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢م.
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تأليف: الشيخ عبد الرزاق البيطار، حققه ونسقه وعلّق عليه حفيده محمد بهجة البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
- حي الميدان في العصر العثماني، د.بريجيت مارينو، ترجمة: ماهر الشريف، دار المدى للثقافة، دمشق، ٢٠٠٠م.
- خطط دمشق: دراسة تاريخية شاملة على مدى ألف عام من سنة ٤٠٠هـ حتى سنة ١٤٠٠هـ، أكرم حسن العلبي، دار الطباع، دمشق، ١٩٨٩م.
- خطط الشام، محمد كرد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي، المطبعة الوهبية بمصر، سنة ١٢٨٤هـ، وقد أعادت نشره دار صادر في بيروت.
- دمشق في مطلع القرن العشرين، أحمد حلمي العلاف، تحقيق: علي جميل نعيسة، دار دمشق للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق ١٩٧٦م.
- الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، نقله إلى العربية صالح سعداوي، استانبول، ١٩٩٩م.
- ذكريات علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر، السعودية، جدة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.
- ذكريات من الماضي، شعر عبد المجيد التجار، دمشق، ٢٠٠٩م.
- رحلات الإمام محمد رشيد رضا، جمعها وحققها الدكتور يوسف إيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧١م.
- السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية ١٨٩١ـ١٩٠٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

ـ السلطة والمجتمع والعمل السياسي (من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام)، د.وجيه كوثراني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
ـ شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، القاهرة، مطبعة القدسي، ١٣٥٠هـ.
ـ الشيخ طاهر الجزائري، رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، د.عدنان الخطيب، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧١م.
ـ الصبر مطية النجاح، قصيدة في الحكم لابن الظهير الإربلي، جمعها وفسّر ألفاظها: الشيخ عبد القادر المبارك، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠م.
ـ صحافة وسياسة (سورية في القرن العشرين)، نصوح بابيل، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون، بيروت، ١٩٧١م.
ـ فجر الاستقلال في سورية، خواطر وذكريات، محمد سهيل العشي، بيروت، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
ـ فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، الطبعة الثانية، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٤م.
ـ في رحاب دمشق، محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة. حققه وعلّق عليه: إبراهيم الزيبق (١ـ٥)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.
ـ كنوز الأجداد، محمد كرد علي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
ـ مجمع اللغة العربية بدمشق (١٣٣٧/ ١٩١٩) تعريف تاريخي، د.مازن المبارك، مطبوعات مجمع اللغة العربية (رجب ١٤٣٠هـ/ حزيران ٢٠٠٩م).
ـ محاضرات عن القومية العربية (تاريخها وقوامها ومراميها) للأمير مصطفى الشهابي، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٥٩م.
ـ محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام، د.أمجد طرابلسي، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٥٧م.
ـ محمد المبارك في تأبين سليم الجندي = محمد سليم الجندي في حفلة الأربعين، في مدرج الجامعة السورية (٤كانون الأول ١٩٥٥م)، بلا تاريخ ومكان الطبع.

ـ محمد المبارك العالم والمفكر والداعية، حسني أدهم جرار، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
ـ المعاصرون، محمد كرد علي، علق عليه وأشرف على طبعه: محمد المصري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.
ـ المفاخرات والمناظرات، عني بها: د. محمد حسان الطيان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
ـ مكتب عنبر (صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية)، ظافر القاسمي، دار العلوم للملايين، بيروت، ١٩٦٤م.
ـ من حاضر اللغة العربية، سعيد الأفغاني، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.
ـ من حديث النفس، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.
ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، الشيخ عبد القادر بدران، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
ـ النور والنار في مكتب عنبر، مطيع المرابط، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م.

ـ أوراق في ترجمة الشيخ محمد الطيب بقلم حفيده هشام الطيب، محفوظة في مكتبته الخاصة.
ـ أوراق في ترجمة الشيخ عبد القادر المبارك بقلم ولده هاني المبارك، محفوظة في مكتبة د. مازن المبارك.
ـ الشيخ عبد القادر المبارك، محاضرة ألقاها د. مازن المبارك في جامع التوبة بدمشق.
ـ محاضرة الدكتور مازن المبارك عن الثقافة الإسلامية، ألقاها في الرياض، سنة ١٩٦٥م.
ـ مذكرات الشيخ محمد أحمد دهمان، بخطه، في مكتبتي الخاصة.
ـ وثيقة تضم نسب الشيخ عبد القادر المبارك وإجازاته، وكتاب انفكاكه عن مكتب النجاح، محفوظة في مكتبة ابنه د. مازن المبارك.



المجلات

ـ مجلة حضارة الإسلام، العدد ٦، ٨.

ـ مجلة اللغة العربية بدمشق، مج ٢١/ ١ـ٢.

ـ مجلة اللغة العربية بدمشق، مج ٢٦/ ١ـ٢.

ـ مجلة اللغة العربية بدمشق، مج ٨٢/ ١ـ٢.

فهرس الموضوعات

إهداء ٩

مقدمة المؤلف ١١

حـيـاتـه ١٥

آل المبارك ١٧

الهجرة إلى الشَّام ٢١

محمد الشيخ والد عبد القادر ٢٥

ولادة عبد القادر ونشأته ٣٣

مكتب النجاح ٣٧

عودة الدستور ٤١

دمشق في العهد الفيصلي ٤٧

في المجمع العلمي العربي ٥٣

تساؤلات عن النهضة وأسبابها ٦١

في مكتب عنبر ٦٥

بين شيخي العربية المبارك والبزم ٨١

مدرسة الأدب العليا ٨٥

حزنه على وفاة شيخه المحدِّث الأكبر بدر الدين الحسني ٨٩

بشائر الاستقلال ٩٣

دار المعلمين العليا ٩٥

وفـاتـه ٩٧

آثـــاره ٩٩

تلاميذه ١٠١

مـؤلـفـاتـه ١٠٩

شِـعْـرُه ١١٥

في بيتـه ١١٩

ملحق ١٢٣
بكر الشرق تباشير الأنوار الشرقية ١٢٥
آية الحديث المسلسل في الترحاب «بسمو الأمير فيصل» ١٣٣
إحدى العبر بين البشر، أنشودةُ الأَلباب في عالَمِ الأسباب ١٣٧
رثاؤه للشيخ المحدِّث الأكبر بدر الدين الحسني ١٥١
«بشائر الاستقلال» ١٥٥
«عواطف الشِّعْر ـ أو ـ شعر العواطف» ١٥٧
لغة المتنبي - ١ - ١٦١
لغة المتنبي - ٢ - ١٧١
دمعتي على أستاذي الكبير الشيخ عبد القادر المبارك لزكي المحاسني ١٧٥
ثبت المصادر والمراجع ١٧٩
فهرس الموضوعات ١٨٥



إبراهيم عمر الزيبق

ـ ولد في دمشق ربيع ١٩٥٣م.

ـ انصرف إلى تحقيق كتب التراث منذ أوائل عام ١٩٨٠م.

ـ صدر له:

١ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي	ج ١٥	١٩٨٣م	مؤسسة الرسالة ـ بيروت
٢ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور	ج ٢٩	١٩٨٨م	دار الفكر ـ دمشق
٣ ـ طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي	ج ٣ ـ ٤	١٩٨٩م	مؤسسة الرسالة ـ بيروت
٤ ـ كتاب الروضتين لأبي شامة	ج١ ـ ٥	١٩٩٧م	مؤسسة الرسالة ـ بيروت
٥ ـ البداية والنهاية لابن كثير	ج ١٢	٢٠٠٧م	دار ابن كثير ـ دمشق
٦ ـ المذيل على الروضتين لأبي شامة	ج١ ـ ٢	٢٠٠٩م	مؤسسة الرسالة ـ بيروت

ـ وكان له شرف المشاركة في تحقيق مسند الإمام أحمد ابن حنبل وتخريج أحاديثه، وصدر في خمسين جزءاً عن مؤسسة الرسالة في بيروت، مع فهارسه، والأجزاء التي شارك فيها، هي:

١ ـ مسند عبد الله بن مسعود	ج ٦ ـ ٧	١٩٩٦م
٢ ـ مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب	ج٨ ـ ٩ ـ ١٠	١٩٩٦م
٣ ـ مسند عبد الله بن عمرو بن العاص	ج١١	١٩٩٧م
٤ ـ مسند أبي سعيد الخدري	ج١٧ ـ ١٨	١٩٩٧م
٥ ـ مسند المكيين	ج ٢٤ ـ ٢٥	١٩٩٨م
٦ ـ مسند المدنيين	ج ٢٦ ـ ٢٧	١٩٩٩م
٧ ـ مسند الشاميين	ج٢٨	١٩٩٩م
٨ ـ مسند الكوفيين	ج ٣٠ ـ ٣١	١٩٩٩م
٩ ـ مسند السيدة عائشة	ج٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣	٢٠٠١م
١٠ ـ مسند النساء	ج ٤٤ ـ ٤٥	٢٠٠١م

وله تأليفاً: أبو شامة، مؤرخ دمشق في عصر الأيوبيين، دراسة تحليلية في سيرته وآثاره التاريخية. ٢٠١٠م مؤسسة الرسالة ـ دمشق

ـ وله تحت الطبع:

ـ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (سنوات ٥٠٠ـ٦٥٤هـ).

ـ وله مقالات وأبحاث تاريخية نشرها في بعض المجلات العربية كالكاتب الفلسطيني، والمجلة العربية، ومجلة الفيصل، وجريدة الأسبوع الأدبي في دمشق.

ـ وشارك في كتابة بعض الأبحاث التاريخية في الموسوعة العربية التي أصدرتها هيئة الموسوعة العربية بدمشق.